

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس

– مستغانم –

كلية الأدب والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

أدب الرحلة ودوره في التواصل بين الحضارات

رحلة صيف في سوف" إلى وادي سوف لأبو القاسم سعد الله أنموذجا

<u>مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر</u>

<u>تخصص: الدراسات الأدبية المقارنة</u>

من إعداد الطالبة :

✓ حمدي كريمة

تحت إشراف الأستاذ :

أ- بلقاسم ابراهيم

السنة الجامعية:2016/2015

كلـــمة شكر

نشكر الله عز وجل الذي وفقنا لإتمام هذا العمل كما أتقدم بالشكر الى كل من مد لي يد المساعدة من قريب أو بعيد ولو يبخل علي بمعلوماته خاصة "أمينة" وأخص بالشكر الأستاذ المشرف لما له من فضل التوجيه والإشراف ومتابعته لهذا البحث.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للسادة أعضاء لجنة المناقشة وحرصهم على تقييم هذا العمل.

إهــــــداء

نحمد الله ونشكر شكرا يليق بجلاله سهل لنا الصعاب ووفقنا وألهمنا القدرة لإنجاز هذا العمل الذي أهديه:

الى التي غمرتني بحنانها ودعواتها والى والى التي أنارت حياتي ووقفت الى جانبي في كل خطوة من خطواتي الى رمز العطف والحنان، والى صاحبة القلب الكبير انتمائي الأول والأخير اليك يا أروع ما في الكون "أمي الحبيبة" أبقاها الله حفظا وصونا ودعما وعونا ..."

والى من تحمل مشاق الدنيا وعنائها من أجل أن أعيش محترمة معززة مكرمة الى من علمني وشجعني كثيرا، وضحى بما لدية "الى أبي العزيز " أدامه الله لنا.

الى اخوتي: أحمد – محمد – علي

الى أخواتي: زهور – فاطمة – مليكة – نادية

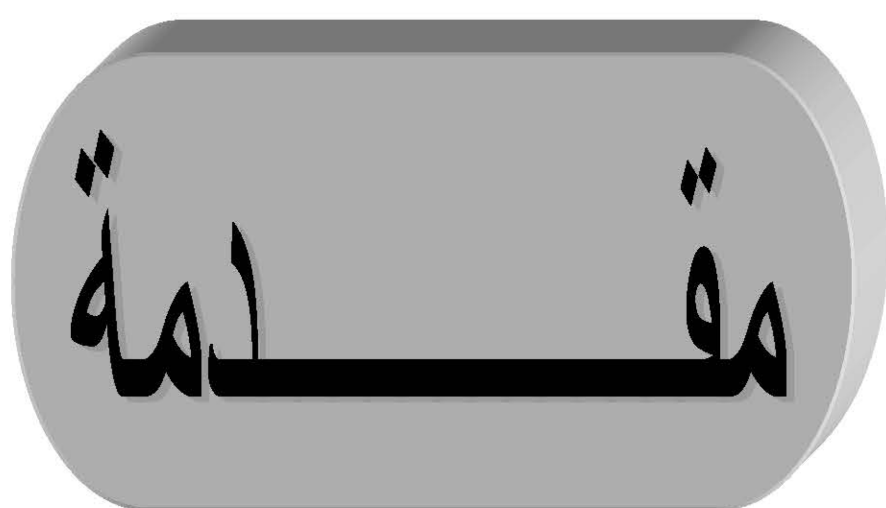
والى كل العائلة والأقارب خاصة قبابي عبد القادر

والى من شاء القدر أن يلاقي بيني وبينهم خمس سنوات

قاضية – فوزية - سامية – جهيدة – سهام

والى أخواتي في الله

والى كل من يعرفني


مقــــــدمة

مقدمة:

يعد أدب الرحلة من الأنواع الأدبية التي اتسمت بمميزاتها و طابعها الخاص وذلك أن مضمونها يتعرض لمختلف نواحي الحياة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، الدينية ....الخ، غير أنها لم تحظ بالدراسة التي تستحقها مثلما حظيت الأنواع أو الفنون الأدبية الأخرى كالقصة و الرواية و غيرها.

و يمكن القول أن أدب الرحلة الجزائري هو أدب بكر لا تزال مناجمه مادة خام، لم يحظ بدراسات كافية إن لم اقل أنها نادرة حول فنون أدبية كالشعر مثلا رغم وجود مادة جيدة و كثيرة تنافس أدب الرحلة العربي.

و عليه ارتأيت الخوض في هذا الموضوع بغرض التنقيب في ثناياه و إبرازه إلى الوجود و من هنا جاء موضوع بحثي موسوما "أدب الرحلة ودوره في التواصل بين الحضارات " أبو القاسم سعد الله نموذجا.

ولم يكن اختياري لهذا الموضوع وليد الصدفة بل كان نتيجة تضافر مجموعة من العوامل ذاتية و موضوعية أما الذاتية فتتلخص في ميلي و اهتمامي بالأدب العربي عامة وبأدب الرحلة على وجه الخصوص، وأما الموضوعية فتتمثل في قلة الدراسات الخاصة بأدب الرحلة في الجزائر إذ كثيرا ما ينصب الاهتمام على دراسة الأدب المشرقي و هذا ما حرك الرغبة في نفسي لولوجه والتعمق فيه خاصة بعد ما اتضح لي أنه موضوع بكر لا يحظ بدراسة جادة و مستقلة، وإن جاء الحديث عنه جزئيا في ثنايا الكتب، رغم أنه لون

أدبي مستقل له مكانه في الأدب العربي و ما ثراء المادة و تنوعها و ارتباطها بالقضايا الوطنية و الإنسانية إلا دافعا أساسيا في ذلك.

- ولإبراز مدى مساهمة الجزائريين في الأدب الرحلي ارتأيت أن أركز اهتمامي على رحلة جزائرية، و هي رحلة أبو القاسم سعد الله الموسومة برحلة **"صيف في سوف"**، وقد أثار هذا البحث فينا مجموعة من التساؤلات لعل أهمها:

ما الفرق بين الرحلة و أدب الرحلة بحد ذاتها ؟وإلى أي مدى ساهم هذا الأدب في التواصل بين الحضارات؟

وللإجابة على هذه الإشكاليات فرضت علينا الدراسة خطة شملت على مقدمة وفصلين وخاتمة تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها تلاها ثبت للمصادر والمراجع حيث أوسمنا الفصل الأول تحت عنوان **"الرحلة في البلاد العربية "** وقسمناه إلى ثلاث مباحث حددنا فيه مفهوم الرحلة الدوافع، دواعي التدوين ، والمبحث الثاني كان خاصا بأدب الرحلة المفهوم و النشأة، والمبحث الثالث أقسام أدب الرحلة و قيمتها الأدبية أما الفصل الثاني وهو الفصل التطبيقي كان عنوانه رحلة أبو القاسم سعد الله إلى وادي سوف وقد شمل الفصل مبحثين تناولنا فيه التعريف بالرحالة والرحلة والمبحث الثاني كان خاصا بالقضايا التي يتناولها الرحالة في الرحلة .

وبما أن كل دراسة أو بحث علمي يتطلب منهجا يتناسب مع طبيعة المشكلة المراد دراستها، فقد اتبعنا في دراستنا المنهج الوصفي التحليلي .

وتجدر الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهتنا أثناء انجاز هدا العمل والتي تتمثل في قلة الدراسات التي تناولت موضوع أدب الرحلة ولاسيما أدب الرحلة الجزائري.

وفي نهاية رحلتي هذه، فان كل ما توصل إليه البحث، لا داعي بلوغه درجة الكمال وخلوه من العلل، بل هو عمل قابل للزيادة و النقص في ضوء ما يستجد من أحكام وآراء شأنه ذلك شأن أي بحث آخر.

وفي الأخير، لا يسعني إلا أن أتوجه إلى المولى بالدعاء أن أكون قد وفقت فيما قدمت في هذا البحث، إياه أن أسأل الهدى والتوفيق إن شاء الله .

الفصــــل الأول

أدب الرحلة ودوره في التواصل بين الحضارات

***الفصــل الأول*: الرحلة في البلاد العربية**

◈المبحث الأول: مفهوم الرحلة – الدوافع- و دواعي التدوين.

1- مفهوم الرحلة
أ- لغة
ب- اصطلاحًا
ج- الرحلة في القران و السنة النبوية الشريفة
2- دوافع الرحلة
3- دواعي تدوين الرحلة

◈المبحث الثاني: أدب الرحلة المفهوم و النشأة.

1 - مفهوم أدب الرحلة
2 - نشأة أدب الرحلة
أ- المرحلة الأولى
ب- المرحلة الثانية

◈المبحث الثالث: أقسام أدب الرحلة و قيمتها الأدبية.

1- أقسام أدب الرحلة
أ- رحلة واقعية خيالية
ب- رحلة شعرية نثرية
2- قيمة أدب الرحلة
أ- قيمة علمية
ب- قيمة أدبية

المبحث الأول: مفهوم الرحلة، الدوافع ودواعي التدوين:

لقد عمدنا الى البحث عن دلالة كلمة (رحل) في بعض المعاجم العربية ،واللافت للنظر أن دلالة هذه الكلمة تكاد تكون متشابهة عند المعجمين العرب، وهذا ما سنحاول توضيحه ولتعريف الرحلة سنبدأ بالمعنى اللغوي لكلمة "رَحل".

1- المعنى اللغوي:

جاء في لسان العرب(لابن منظور):إن الرحلة مركب للبعير والناقة وجمعه أُرْحُلٌ ورِحَالٌ والرَحْلُ في غير هذا منزل الرجل ومسكنه و بيته و انتهينا إلى رِحَالِنَا أي منازلنا، ورحلَ البعيرَ يَرْحَلُهُ، رحلا فهو مرحولٌ ورَحِيلٌ [1] .

وفي معجم مقاييس اللغة (لابن فارس): رَحَلَ: الراء و الحاء و اللام[2] أصل واحد يدل على مضي في سفر و يقال: رَحَلَ، يَرْحَلُ، رحلة... والرحلة الارتحال........ورَحَلَهُ إذ أضعنه من مكانه ومعنى هذا آن كل كلمة اجتمعت فيها هذه الحروف لم يخرج معناها عن الحركة والسير والانتقال، ونجد في كلامه هذا اتفاقا مع ما قاله ابن منظور بل هو تكرار له.ويشير (الفيروزابادي):في قاموس المحيط الى دلالة الرحلة بقوله ارتحل البعير سار ومضى و القوم عن المكان انتقلوا.[3]

ومن هنا نستشف أن دلالة كلمة رحل في لغة العرب تلخصت في السير و الانتقال و الحركة.

---

[1] -ابن منظور،لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، ط 1994، 3، ص276

[2]- ابن فارس (احمد):مقاييس اللغة المجلد الثاني، دار الجيل بيروت دت ص446

[3]-الفيروز ابادي:القاموس المحيط ،ج3،دار الأحياء للكتب العربية، بيروت 1985 ص394

وتجدر الإشارة إلى أن القران الكريم حفل بالعديد من الأمثلة التي تشير إلى هذه المعاني على الرغم من عدم ورود لفظة رحلة فيه إلا في قوله جل وعلا : "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " [1]. ففي هذه السورة ارتبطت الرحلة بالتجارة والتي كان يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن و شتاء إلى الشام.

- كما ورد لفظ "رحل " في الكتاب المنزه ولكن بمعنى البعير (الراحلة) في قوله جل وعلا: " فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ".[2]

2- المعنى الاصطلاحي:

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلا أنها تصب كلها في قالب واحد، يمكن القول بأنه فن التعبير عن مشاعر تختلج في نفس الأدب المغترب تجاه كل ما يراه ويعايشه ، يحكي من خلاله أحداث سفر وما شاهده وعاشه بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة .

فالرحلة إذا هي انتقال من مكان إلى أخر وهذا هو المعنى الأول، أما المعنى الثاني هو أن الرحلة كتابة وخطاب و هو المعنى الذي يهم الباحثين و يشتغلون[3]

[1]- سورة يس الآية 1، 2، 3، 4.
[2]- سورة يوسف الآية 70.
[3]- محمد حاتمي في الخطاب الرحلي،مقالة منشورة الكترونيا.

"خطاب الرحلة هو التسمية التي أطلقها **سعيد يقطين** على المعنى الثاني لكلمة رحله ويعرفه بأنه :"عملية تلفيظ لفعل الرحلة بينما المعنى الأول الرحلة ذاتها ، ولهذا يتحدث عن الرحلة وخطابها ، ويرى أن خطاب الرحلة يتماشى مع الرحلة وعوالمها ، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية.[1]

- ويرى الشيخ حسين العطار في الرحلة فرصة لمشاهدة عجائب الدنيا، ومحكما أساسيا لتجارب الإنسان ومعلوماته.[2]

والرحلة وسيلة هامة لاكتشاف العالم والإنسان، وتوسيع لخبرات الرحالة و معارفه، وفي هذا المضمون يقول الفيلسوف الانجليزي " **فرانسيس بيكون** ": "إن السفر تعليم للصغير، وخبرة للكبير "[3]

من خلال تحديدنا مفهوم الرحلة، في اللغة وفي الاصطلاح تبين لنا "أن المفهومين لا يبتعدان كثيرا، فهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة، وهذه الحركة يحقق منها الإنسان فوائد عدة، فالشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو نفسه الشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو نفسه الشخص الذي يبقى في مكانه لا يتحرك" ، ولقد أشار إلى ذلك المسعودي، ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمِيَ إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسَم عمره على قطع الأقطار،

---

[1]- خطاب الرحلة في الأدب العربي ومكوناته البنيوية ،مجلة علامات في النقد،النادي الأدبي،جدة ،ج9-م3-سبتمبر 1993،ص165.

[2]- حسين محمد فهيم ،ادب الرحلات سلسلة عالم المعرفة ،رقم 138،المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت ،1989،ص19.

[3]- المرجع نفسه، ص20.

ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمنه،[1].

- **الرحلة في القران الكريم و السنة النبوية الشريفة:**

إن الرحلة في القران الكريم والسنة النبوية الشريفة قد ارتبطت بدوافع نفعية كثيرة مثل التجارة و البحث في سبل آمنة للعيش أو مشاهدة آيات الله في الأرض، والتدبر فيها تم تبليغها للآخرين ممن حرموا نعمة مشاهدتها و كذلك القيام بالحج و العمرة و طلب العلم من متابعة و أصوله في سبيل الله و نصرة دينه [2] .

إذا ورد لفظ "رحلة" في القران الكريم مرة واحدة – كما سبق و أنشرت – إلا أن المفردات الدالة على الحركة والانتقال كثيرة ومتعددة نذكر منها: الظعن، الهجر، السفر، الإسراء، الحج، السير [3].فشلا في لفظتي الظعن والإسراء: لفظة الظعن وردت مرة واحدة في قوله تعالى في سورة النحل " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا و جعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم و يوم إقامتكم و من أصوافها و أوبارها و إشعارها أثاثا و متاعا إلى حين"[4].

أما إذا عرجنا إلى السنة النبوية الشريفة نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشجع أصحابه على الرحلة ويحثهم عليها بغية طلب العلم و نشر الإسلام و كذا التأمل في هذا الكون و التدبر في آيات الله تعالى وكشف كنوزه و من أحاديث الرسول صلى الله عليه

[1]- المسعودي أبو الحسين مروج الذهب و معادن الجوهر ج1 تقديم محمد السويدي – موفر النشر د ط – الجزائر 1989 ص3
[2]- سميرة أنساعد الرحلة إلى المشرق للنشر و التوزيع ط1 القاهرة 2006 ص21.
[3]- المرجع نفسه ص17.
[4]- سورة النحل الآية 80.

وسلم التي يحث فيها على الرحلة لطلب العلم نذكر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم : "......من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة".[1]

ومن خلال تحديدنا مفهوم الرحلة في القران الكريم و السنة النبوية الشريفة تبين أن هذا النشاط قد اقترن بدوافع نفعية كثيرة مثل التجارة والبحث عن سبل للعيش أو مشاهدة آيات الله في العارض والتدبر فيها ثم تبليغها للآخرين ممن حرموا نعمة مشاهدتها وكذلك القيام بالحج والعمرة وطلبِ العلم من منابِعِهِ و أصوله ،أو الجهل في سبيل الله و نصرة دينه.

دوافع الرحلة :

الرحلة سلوك ملازم للإنسان منذ أن وجد رغم تباين الدوافع و تعدد الحاجات التي يمكن إرجاعها إلى الرغبة في اكتشافات المجهول و التعامل معه بما تيسر من وسائل.

وإذا حاولنا الاطلاع على دوافع الرحلة نجدها كثيرة و متنوعة فلكل رحالة دافع حفزه للقيام برحلته، والذي يختلف عن دافع رحالة أخر .

أ- الضرورة : تعد الضرورة واحدة من الدوافع الحتمية التي تدفع الرحالة إلى القيام بهذا النشاط خاصة إذا تعرض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادر بحثا عن الكلأ و الماء، و هربا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير، أو يأسا من المجتمع و ما قد حل به من حروب و نزاعات

---

[1]- محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي صحيح مسلم بشرح النووي تح محمد سيد عبد رب الرسول ج 17-18 مكتبة أبو بكر الصديق للنشر و التوزيع ط1 القاهرة 2006-ص21.

محلية، وظروف اجتماعية قاسية وويلات ونكبات – [1] فكانت الرحلة إحدى السبل الضرورية التي يسلكها الإنسان إنقاذ لنفسه ونجاة من المكائد.

ب- **الدافع الديني**:

وتعد من العوامل الأساسية والقوية التي تدفع بالرحالة إلى شد رحاله نحو المشرق الإسلامي لأداء مناسك الحج، زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء في كل من بغداد ودمشق والقاهرة و غيرها، ويعد هذا العامل من اقوي البواعث على الرحلة فهو مبعث الحنين [2].

وكان للحكام والأمراء الفضل في تيسير الرحلة إلى الحجاز لكل الحجاج من الغرب والشرق، و يقول محمد حسين فهيم حول هذا المضمون عن **محمد الصياد** "إن الحجاج كانوا يتجمعون في قوافل تبدأ صغيرة تم تنمو كلها تقدم بها الطريق، مما ينضم إليها من وفود، حتى تصبح في النهاية للعراق حجيجه، وللشام حجيجه لإفريقيا حاجها وتسير القافلة في ألفة ونظام و تعاطف شامل يحميها جنود الحكام ويرحب بها سكان المدن والقرى ورجال الدين.[3]

- هناك رحالين شانهم شان ابن بطوطة تعلقوا بزيارة الأماكن المقدسة و شدهم الشوق إلى أداء الركن الخامس من أركان فدونوا رحلتهم و قدموها للقراء للاستفادة منها.

[1]- نوال عبد الرحمان شوابكة أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري دار المأمون للنشر و التوزيع ط1 عمتن 2008 ص21

[2]- المرجع نفسه ص27.

[3]- حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ص 90

ج- الدافع العلمي:

كانت الرحلة إحدى السبل التي لجا إليها الرحالة بغية طلب العلم و ملاقاة العلماء والفقهاء ومحاورتهم والاستفادة منهم بل أن هناك **"من العلوم الإسلامية ما يرتبط بالرحلة ارتباطا عضويا لا انفصام له مثل الجغرافيا و لذلك نجد الجغرافيين المسلمين من الرحالة"**.[1]

- أول من حقق هذا النوع من الرحلات النبي موسى عليه السلام بأمر من الله تعالى وتوجيهه مثلما حث الدين الإسلامي على هذا النوع من الرحلة إذ قال الله تعالى " فلولا نضر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"[2].

د- **الرحلة الإدارية**:وتسمى كذلك رحلة السفارة، وهي رحلة رسمية يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة قد تتعلق بشن البلاد. كما قد تخص الحاكم نفسه، بل إن هذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسس والاستطلاع كرحلة سلام الترجمان عام 841/227 م والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله قصد معرفة حقيقة سد الصين الكبير الذي يقال أن الإسكندر بناه بين العالم القديم و ديار يأجوج و مأجوج . [3]

فالرحلة الإدارية فرضتها ظروف البلاد - " إذ اقتضت ضرورة الحاكم و الإدارة ، وتقديم الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الحكم بعض الأشخاص بالقيام برحلات تفقدية

---

[1]- حسين نصار ،ادب الرحلة - دار نوبار للطباعة + الشركة المصرية العالمية للنشر ط 1 القاهرة 1991 ص 32

[2]- سورة التوبة الآية 122

[3]- شوقي ضيف الرحلات ، دار المعرفة ط4 .القاهرة د ،ت ،ص9

لجمع البيانات والحقائق، وتقديم التقارير فقد أدت الرحلات دورا هاما في تحقيق تلك الأنشطة التي تنضم إلى مجال الجغرافيا الإدارية أو كتابة تواريخ الأقاليم .[1]

هـ ـ الدافع الاقتصادي:

عرف الإنسان الرحلة قديما، وكان من بين أهدافها التجارة سعيا لطلب الرزق بحكم الموقع الاستراتيجي للوطن العربي الذي يتوسط قارات العالم القديم، كان مركزًا لالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، كما أن انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة العربية جعلها تحتل موقعا تجاريا هاما.[2]

فالتجارة كانت من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته حتى يعين القارئ على معرفة طرق التجارة البرية و البحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان، والبقاع ، وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج و المسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة .[3]

وإلى جانب هذه الدوافع الرئيسية للرحلة هناك دوافع أخرى تجعل الرحالة يغادر أهله ووطنه لينتقل إلى بلد أخر قصد الاطلاع على المجهول من جهة ، وتحقيق المتعة والترفيه

[1]- حسين محمد فهيم أدب الرحلات ص 91

[2]- نوال عبد الرحمان الشوابكة أدب الرحلات الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ص46

[3]- المرجع نفسه ص 47

لنفسه من جهة أخرى، ليكون بذلك العامل سياحيا "وهكذا جاءت بعض الرحلات لجلب الأفاق والسعي إلى ارتياد البعيد وامتطاء أجنحة الرياح حبا في المغامرة والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحجاج أو المهام الرسمية، أو طلب العام فينتهز الراحلة الفرصة مدفوعا مروج المغامرة والاستكشاف والشوق إلى المجهول، ليجول في البلاد، يريد أن يرى كل شئ ويجرب كل شئ."[1]

دواعي تدوين الرحلة:

- تلبية طلب الآخرين من حكام، و أصدقاء أو أقرباء، بتدوين الرحلة.
- إفادة القراء، بتقديم معلومات عن المعارف والعلوم، والتعريف بالإعلام وبمؤلفاتهم، وكذلك تعيين مناسك الحج والعمرة .
- التعريف بالبلدان، ووصف الطرق والمسالك معاطن المياه والأسواق ......وتبيين مواقع الخطر والمشقة حتى لا يقع فيها الآخرون ،من منجزي الرحلات.
- ذكر أخبار الأمم، والأقوام والجماعات البشرية، ماضيا وحاضرا، وعرض محاسنها ومساوئها، عاداتها، وقيمها، طقوسها الدينية، وطرائق عيشها.
- التاريخ للأحداث المتنوعة، وتقديم معلومات موجزة أو مفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المجتازة أو المقصودة من الزيارة.
- دعوة الرحالة مواطنيه إلى التغيير من أحوالهم، وتوعيتهم، ويقترن هذا الدافع مع الرحلات الحديثة والتي عايشت الاحتلال والقهر والجمود الفكري لدى العامة.

---

[1]- نوال عبد الرحمان الشوابكة ، أدب الرحلات الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ص 195

- رغبة المشاركة في أدب الرحلات عند الرحالة، وتدوين أخبار رحلته على منوال ما دونه السابقون من الرحالين والإعلام البارزين في هدا الفن أمثال المسعودي والمقدسي، ابن جبير، وابن بطوطة وغيرهم من الرحالين.

وتختتم الدكتورة أنساعد دواعي تدوين الرحلات بالداعي الثاني وهو سبب ذاتي وهو رغبة الرحالة في نيل الثواب من الله تعالى، بتحقيق الدوافع السابقة وحصوله على البركة والخير بذكر الأماكن المقدسة من الحجاز الشريف وأهله الأبرار وكل ما يتعلق بالدين الإسلامي فيس حال تدوين رحلة الحجاز.[1]

المبحث الثاني: أدب الرحلة، المفهوم و النشأة:

- **مفهوم أدب الرحلة:**

بعد ان حددنا مفهوم الرحلة في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي سنحاول تحديد مفهوم أدب الرحلة باعتباره فنا من فنون النثر.

وهذا النوع من النثر لم يأخذ في بداية الأمر اسم رحلة وعناوين بعض المؤلفات دليل على ذلك مثل (مروج الذهب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ....) أما لفظ رحلة فأول من أطلقها على مؤلفه فهو **بن جبير** ولقد ورد ذلك في مقدمة الرحلة المغربية

[1]- سميرة أنساعد ،الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ص 35-36

للعبدري، يقول المحقق كلمة رحلة ليست من ابتكار **العبدري**، فأول من سمى هذا النوع من الكتابة رحلة هو : **احمد بن جبير** المتوفي سنة 214 هجرية فهو إذا مؤسس فن الرحلة [1]

- وتقف الباحثة: نوال عبد الرحمان الشوابكة موقفا مماثلا في تحديدها لهذا الفن بقولها: «أدب الرحلات فن تغمره الحياة يزخر بالتجارب الحية ، و الحركة والانتقال من مكان إلى أخر و هو بهذا يلتقي بالسيرة ، ذلك أن كلمة سار تدل على المسير والانتقال وتومئ بطول الطريق ، و قطع المسافات و تعدد المراحل و هذا يتفق مع الكتابات التي تؤرخ لسيرة الإنسان منذ طفولته إلى شيخوخته »[2].
- ويبدو من خلال هذا التحديد أن الباحثة تحاول أن تبرز مواطن الاختلاف والتشابه بين أدب الرحلات والسيرة الذاتية على اعتبار أن الرحلات تطلعنا على سير أصحابها وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرحلات.

فالدقة في تعريف الرحلة سيكون صعبا كتعريف أي جنسي أدبي على غرار الشعر والرواية وهذا لتعدد مضامينها وأساليبها لأنه وكما أسلفنا سابقا بتداخلها مع خطابات أخرى متعددة: الجغرافيا، والتصوف، والأدب، والسيرة الذاتية، والحكايات، والرسائل، والشعر

[1]- محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تح احمد بن جدو مطبعة البعث نشر كلية الآداب الجزائرية قسنطينة ط 1 ص2

[2]- نوال عبد الرحمان الشوبكة الرحلات الأندلسية و الغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري دار المأمون للنشر والتوزيع عمان طبعة 2008 صفحة 243

وهذا كله يقودنا إلى صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده رغم الخصوصيات والتنويعات في النصوص الرحلية العربية .[1]

ففي معجم مصطلحات الأدب لمجدي وهبة "لا نلاحظ أي تعريف للرحلة فقد اكتفى صاحبه بإشارة مقتضية للرحلة الخيالية "[2] بالمقابل نجد **جبور عبد النور** في المعجم الأدبي يتحدث عن الرحلة دون إيجاد تعريف خاص لها، بل اكتفى بكلام عام يقول " تشل الرحلة في الأدب العربي منزلة رفيعة، وأصبحت من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم [3] ثم يشير إلى أن للمغامرة الإكتشافية و العواطف المحركة للبشر و تابعة أيضا من أنواع الشخصيات التي تبررها للقارئ.[4]

في الوقت الذي اكتفى فيه **سعيد علوش** بذلك المجال الذي تنشئ إليه الرحلة و ذكر أعلامها و ميادينها يقول« **أدب الرحلة هو أدب يدخله في درس الصورولجيا أي دراسة صورة شعب عند شعب أخر».**[5]

وقد سارت الموسوعة العالمية Encyclopédie Universels على النهج: ذاته، فاكتفت بالإشارة إلى أن الخصيصة الأساسية للرحلة هي التنوع دون المظاهر المختلفة، وإن الرحلة تدخل ضمن السيرة الذاتية لان المؤلف والراوي والرحالة هم شخص واحد.

[1]- الرحلة في الأدب العربي – شعيب حليفي ، مرجع سابق صفحة 165
[2]- مجدي وهبة ، معجم مصطلحات الأدب مكتبة لبنان بيروت 1974 صفحة 165
[3]- جبور عبد النور المعجم الأدبي بدار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الثانية 1984 صفحة 121
[4]- المصدر نفسه ص 122
[5]- سعيد علوش معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، المكتبة الجامعية الدار البيضاء 1984 صفحة 7

فيما عرف معجم المصطلحات الأدبية أدب الرحلة بأنه :" مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد ".

وتصنيف إلى ما عليه المعجم من موضوعات شائعة قد تتضمنها الرحلات المدونة وصف أحوال البلدان في مختلف مجالات الحياة : من سياسة و اقتصاد و علم و ديانات .....

"وقد اشترط الدكتور **انجيل بطرس** من خلال تحديد مفهوم أدب الرحلات أن يتحقق في وصف الرحالة ، وتسجيله لمشاهداته ، وانطباعاته: الواقعية والدقة، وجمال الأسلوب."[1]

فيقول ذات الأخير: « وهناك صفتان عامتان لابد من توافرها في أدب الرحلات و هما:

أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة بعكس الرحلة، والرغبة الشديدة التي تمتلكه للقيام بها.[2]

ولعل خير أمثلة أدب الرحلات "هو ما يكشف عن شخصية الرحال بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل بينها، والناس الذي يتلقى بهم، فإذا كان الوسط الذهبي هذا، ففي أحد طرفيه توجد الأمثلة التي تقع فيها شخصية الرحال في مركز الانتباه، و في الطرف الآخر

---

[1]- المرجع السابق ص 32

[2]- المرجع نفسه ص32-33.

تقع الرحلة الجافة التي تحمل أثرا لشخصية صاحبها، وتفقد الشخصية المميزة بعد أن تصبح مجموعة من الحقائق العارية من السمة الإنسانية التي تميز العمل الأدبي". [1]

"وإن كان **إنجيل بطرس** يوجب الدقة في الوصف، فان هذا الأمر يتحقق دائما، فقد يأتي أسلوب الوصف في بعض الرحلات، غير مهتم بدقائق الموصوف ويكون هدف الرحالة شيء آخر كسرد الأحداث العلمية، والدينية، أو التركيز على الذات، وإهمال وصف المشاهدات ".

فمن خلال التعريفات المتعددة الجوانب والواردة في مقدمات الكتب أو في المقالات يمكننا القول أن أدب الرحلة "فن نثري يقوم على رحلة قام بها شخص في الواقع، فينقل للقارئ مشاهداته وانطباعاته التي تركتها الرحلة". فهو أدب يقوم بين الرحال واقعية في زمان ومكان محددين، كما قد يقوم بها رحالة قد تمكن حب الرحلة منه، فيصف من خلالها انطباعاته ومشاهداته، فيمزج في وصفه بين شخص الرحال من ناحية والرحلة كموضوع من ناحية أخرى، فيستخدم النثر المعبر عن ذات الرحال، والحامل لخصائصه دون تكلف أو إسراف مع المحافظة على بنية تكفل تماسك العمل ووحدته و بعبارة أخرى أن يكون ذا معالم واضحة تحقق الترابط بين أجزاء العمل، من لدن البداية حتى النهاية. فهو فن قائم بذاته له أصوله و قواعده الفضفاضة الهدف منه التأثير في القارئ و التواصل معه،حيث يستمتع بكل ما فيه و تزداد ثقافته ومعارفه بطريق غير مباشر أو محسوس.[2]

بل انه يجعل القارئ، يقوم برحلة ممتعة دون حركة أو انتقال.

- الرحلات في أدب الانجليزي - إنجيل بطرس- مرجع سابق ص 07 [1]

[2]- ناصر عبد الرزاق الموافي ، رحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ص 40-41

إذن أساس فن الرحلة يتجلى في :

- **الرحالة**: وهو الشخص الذي قام بالرحلة.
- **الوصف**: وذلك بوصف الرحالة كل ما وقع عليه نظره و شد انتباهه حول ذلك البلد، ويعد الوصف أساس الرحلة.

أدب الرحلة هو فن من فنون النثر العربي، يمتاز بـ « **تشكيل لنص ذاتي شخصي بخصوص الأنا و الأخر...يتبين مكتفيا في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة، انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية، أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف و التعليقات**»[1].

وبعد أن حددنا مفهوم أدب الرحلة و الأسس التي تقوم عليها سنبين الفرق الموجود بين هذا المصطلح (أدب الرحلة) ومصطلحي: الجغرافيا الوصفية ، و الأدب الجغرافي لمعرفة الروابط و الصلات المشتركة بينهم .

1- **الجغرافيا الوصفية** : وتعرف كذلك بـ «**علم المسالك و المسالك** » وهي تصنيف ضمن العلوم الدقيقة، والجغرافيا الوصفية « تقف في الأغلب على النقيض من أدب الرحلات، ذلك أنها تهدف إلى الوصف الجغرافي العلمي أساسا، مستخدمة منهج العلوم وأسلوبه، دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية ...كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلا مباشر ألا تراعي فيه النواحي الجمالية أو الذاتية [2] فالجغرافيا الوصفية إذن تسعى إلى تقديم المعلومات الجغرافية تقديما علميا، وبطريقة موضوعية، تختفي فيها

---

[1]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي – التجنيس – آليات الكتابة خطاب المتخيل رؤية للنشر و التوزيع ط1 القاهرة ص 45.

[2]- ناصر عبد الرزاق الموافي ، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ص 36

الجوانب الجمالية الأدبية كما تختفي فيه العناصر الذاتية ويرتبط بها ارتباطا وثيقا قصص الرحلات »[1]

2- **الأدب الجغرافي :** لو حاولنا البحث في التراث العربي قبل القرن الثالث للهجرة عن مصنفات جغرافية فإننا لا نجد ذلك، لان أسس علم الجغرافيا العربية كان من خلال تعرف العرب على مصنفات بطليموس، ليشرع بعد ذلك العرب في التأليف الجغرافي بوصف دولتهم الممتدة من الهند، وحدود الصين إلى اسبانيا وجبال البرانس، ومن القوقاز وأسيا الصغرى إلى السودان و مجاهل افريقية[2]، القسم هذا يوازن بين النهج العلمي الخالص و النهج الأدبي بتقدم ملحوظ للأدب باعتباره الغالب على المؤلف، فالموضوع جغرافي، لكن التناول أدبي...

"وهو أدب يشكل عنصرا ضخما و أساسيا في الموروث العربي يتخذ صورا متنوعة ، فهو أحيانا ذو طابع رسمي، وأحيانا ذو طابع شعبي، وأحيانا أخرى يكسو جلبابا من الخيال الأسطوري[3]."، إن الأدب الذي يروي لنا الكثير من مغامرات البحر كقصة السندباد البحري أو قصص عجائب المخلوقات، و هي كتب الفت لجمهرة القراء، لم يقصد بها مؤلفوها جمع الخرافات، بل إلى التحدث بغرائب الموجودات، تبعا لطريقة كل منهم في النظر إلى هذه الغرائب، و فهمها، و مقدار ماله من العلم بها...[4]، و هذه الكتب متفاوتة من حيث الحقائق العلمية، و الخيال و لكنها جميعها لا تخلو من بعض هذه العناصر، "فالأدب الجغرافي أدب يحرز على إعجاب كثير من غير العرب لطابعه الفني الذي يمزج الحقيقة بالخيال و الحلم

[1]- كراتشوفاسكي، اغناطيوس تاريخ الأدب الجغرافي ص 20
[2]- شوقي ضيف، الرحلات ص 11
[3]- إسماعيل زردومي ، فن الرحلة في الأدب المغربي القدم ، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم 1426 هـ 2005 م جامعة الحاج الأخضر قدم اللغة العربية و آدابها – باتنة ص 05
[4]- حسين فوزي حديث السندباد القديم دار الكتاب اللبناني –دار الكتاب المهدي سنة 1977م ص 34

الواقع."......فكتاب الرحلات من هذا النوع يعتقدون أنهم يكتبون في الأدب بمعناه الواسع وهو الأخذ من كل فن بطرف .[1]

يقول احد الدارسين" أن الجغرافي عندما يدرس مكانا يعتبره غالبا جمادا أو مادة بحث منفصلة عنه ، بينما يعتبره الرحال كائنا حيا ينفعل به ، و يتفاعل معه... يربط المكان و ما عليه بنفسه ثم بالزمان ليخرج لنا موقفا أو تجربة تستحق الوصف[2]."

" وكان ذلك خلال القرن الرابع الهجري (10)هذا القرن الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي في أوجه في مجال تطوره الخلاق، كحركة مستقلة قائمة بذاتها وهو يزخر بمصنفات هامة في محيط الجغرافيا الإقليمية، غير أن الإنتاج الأدبي فيه لم يقف عند الحد فقد تم في هذا القرن حدا كبيرا بفعل الفتوحات الإسلامية التي أدت إلى اتساع رقعة الإسلام" الأمر[3] الذي دفع العرب إلى معرفة و ضبط مسالكهم و ممالكهم، و هذه المهمة شغلت اهتمام كل الطبقات لا المثقفين فقط، إنها موجهة للجمهور ككل لأنها كانت تحتوي على ما يفيد الناس في ترحالهم، و قد يكون هذا من الأسباب التي جعلت الطابع العام لهذه الكتب سهلا مبسطا و شعبيا، فكثر انتشاره و تداوله بين الناس و غلب الطابع القصصي على هذه الكتب بالرغم من جدية بعضها و علميتها[4].

- "فالأدب الجغرافي يتبع النهج العلمي، ولكن بأسلوب أدبي، حيث لا يطغى احدهما على الأخر و بحيث تظل شخصية الرحال بين أن وآخر، لتقيم نوعا من التوازن بين الموضوع

[1]- إسماعيل زردومي –المرجع السابق ص 06/05

[2]- إسماعيل زردومي المرجع السابق ص 6 ينظر ت-ناصر عبد الرازق الموافي الرحلة في الأدب

[3]- كراتشوفيسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص 190.

[4]- شوقي ضيف ص 12

والذات بحيث يتعلم القارئ ويستمتع في آن"، أنها ازدواجية تهدف إلى التقديم غير المباشر للمعلومة، أو لتحقيق حدتها آو جفافها، بحيث لا يمل القارئ[1].

3- **نشأة أدب الرحلة:**

إن المتتبع لمسار الرحلة في الأدب العربي ، يلفي أن جذور هذا الفن موغلة في القدم إذ تتفق جل المصادر على أن العرب عرفوا الرحلة و اشتهروا بها منذ عصور الجاهلية الأولى (قبل الإسلام)، نتيجة "لطبيعة الحياة البدوية القائمة على التنقل و الترحال. وذلك لعدة أسباب منها " طبيعة حياة العربي البدوية التي تعتمد على الرعي بحثا عن الكلأ والماء، التباري بالشعر، وكذا التجارة "[2].

- فقد اتضح أن الرحلة قبل الإسلام كانت عموما لأغراض تجارية بحتة ومعنى ذلك أنها كانت مجرد ممارسة أو فعل ولترتق إلى مستوى الفن القائم بذاته.

إذا تتبعنا مسار أدب الرحلة العربي نجده قد مر بمرحلتين أساسيتين هما:

- **المرحلة الأولى** : كانت انطلاقتها منذ القرن الثالث للهجرة مع ابن يعقوب" من خلال كتابه كتاب البلدان هذا الذي نال عناية الكثير من الدارسين و الباحثين لأمانته العلمية ودقته وابتعاده عن الغرائب والعجائب، قام برحلات كثيرة امتدت شرقا إلى الهند وبلغت أقصاها غربا برحلته إلى بلاد المغارب والأندلس" [3]، وإلى جانب اليعقوبي شاهد هذا

[1]- ناصر عبد الرزاق الحوافي الرحلة العربية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ص37
[2]- سميرة أنساعد الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي و الثقافي في الجزائر ط 1-2001 ص 12
[3]- فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي مكتبة الدار العربية للكتاب ط 2 القاهرة 2002 ص 117.

القرن رحالين آخرين نذكر منهم محمد بن موسى بن المنجم، سلام الترجمان، سليمان التاجر، الذي يعد رائد أدب لرحلات البحرية ابن وهب القرشي ،ابن خرداذبه، ابن رستم، ابن الفقيه...[1].

أما إذا انتقلنا إلى القرن الهجري، فإننا نسجل ثلاث رحلات بارزة ، أولهم رحلة المسعودي، و التي نقلها لنا في كتابة "مروج الذهب و معادن الجوهر" يقول فيه : " صنفنا كتابنا في أخبار الزمان و قدمنا القول فيه على هيئة الأرض ومدنها، وعجائبها، وبحارها وأغوارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادنها وأصناف مناهلها وأخبار، غباضها وجزائر البحار الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة والمساكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل وتباين الأوطان"[2].

من خلال هذا الكلام يتبين أن المسعودي كان مهتما بفن الرحلات، و مقدرًا لقيمته و لا غرو في ذلك لان الحديث عن كل هذه الجزيئات لا ينم إلا عن نفس تواقة للرحلة ومحبة لها.

لقد كان انضمام المسعودي بالرحلة اهتماما بالغا لكونه أدرك أهميتها الأمر الذي جعله يعدد منافعها وهو ما نجده ماثلا في قوله : " ليس من لزم جهة وطنه كمن قسم عمره على كل قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه "[3].

[1]- المرجع السابق ص 85

[2]- المسعودي : أبو الحسين علي مروج الذهب و معادن الجوهر ج 1- مون للنشر، الجزائر 1989- ص 03

[3]- المصدر نفسه ص 07

يمكن القول أن القرن الرابع هو عصر الرحلة الذهبي ولا مشاحة في ذلك ففي هذا القرن بلغ الأدب الجغرافي أوجه في مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة بذاتها، وقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حدا كبيرا، كما ارتبطت الجغرافيا ارتباطا وثيقا بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبي"[1].

وبحلول القرن الخامس الهجري يطل علينا اسم أبي الريحان البيروني هذا الرحالة الذي برز في فترة عرف فيها أدب الرحلة نضجا كبيرا، نتيجة لما زخرت به (تلك فترة) **"من مصنفات مهمة بلغت أوج التطور الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها"**[2].

إن البيروني يمثل نقطة تقاطع بين القرنين الرابع والخامس الهجريين من خلال كتابة **"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة على الرغم من جغرافية هذا الكتاب إلا انه لا يمكن " اعتباره كتابا جغرافيا بالمعنى الضيق للفظ فالمكانة الأولى قد تحتلها الحضارة الروحية للهند، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة "**[3]، فهنا بدأ أدب الرحلة يتسم بالاستقلالية عن التاريخ والجغرافيا ويبرز كفن أدبي له طابعه الخاص .

- فالرحالة "و ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي غير نمط كتابته ، فبعد أن كان اهتمامه منصبا على تسجيل الجوانب الجغرافية المتعلقة بالبلدان التي زارها تحول في القرن السادس الهجري (12م)نحو سرد تجربته و ذلك بذكره لكثير من خصوصياته، مشاعره،

[1]- الموافي ناصر عبد الرزاق ، الرحلة في الأدب العربي ص 86
[2]- حسني محمد حسين أدب الرحلة عند العرب دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ط2 بيروت 1983 ص 12.
[3]- المرجع نفسه ص13.

أفكاره، و انتقاداته، مع تحول في الطابع الأسلوبي للكتابة كذلك، إذ أصبح أسلوبا سرديا وقصصيا، يتسم بالبساطة والسلاسة وبهذا انتقلت الرحلة من الطابع العلمي إلى الطابع الأدبي [1].

المرحلة الثانية :

لقد عاش العرب فترة ظلام دامس على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولاسيما العلمية خلال القرن العاشر الهجري 16 م الأمر الذي جعل هذه الفترة عقيمة، وراكدة من حيث الرحلات وذلك لأسباب منها "تعدد المشكلات السياسية والاقتصادية التي لحقت بالعالم العربي، هذا إلى جانب التراجع الثقافي والحضاري للفرد العربي، كما أن العديد من الدول العربية عانت في تلك الفترة من المشكلات الداخلية وأهمها التفاوت على السلطة في الوقت الذي شهدت فيه هذه الفترة العديد من الكشوفات الجغرافية الغربية" ، إن تم اكتشاف العالم الجديد في الأمريكتين، وكذا بداية الصعود الحضاري الأوروبي[2]، إلا سرعان ما عادت الرحلات العربية إلى النشاط شيئا فشيئا خلال القرنين السابع و الثامن عشر الميلاديين (11 هـ ، 12 هـ).

حيث شهد القرن السابع عشر بعض الرحلات نذكر منها، و من المغرب العربي تحديدا، رحلة العياشي المسماة " ماء الموائد " والمعروفة بالرحلة العياشية، وهي رحلة

---

[1]- سميرة أنساعد الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ص48.
[2]- فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي ص 81

حجازية ، إذ تعتبر رحلة من الرحلات التي ألغت خلال هذا العهد "الذي لم يطرأ فيه أي تقدم في هذا الميدان إلى العصر الحاضر، أو على الأقل إلى القرن التاسع عشر" [1].

ومن رحلات القرن 17 م كذلك نذكر رحلة احمد المقري التلمساني، وهي رحلة غير مطبوعة (مخطوط) تحمل عنوان " رحلة في المشرق و المغرب"[2].

سرعان ما بدأ أدب الرحلة في الانتعاش من جديد مع بداية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي) "حيث بدا مجال الرحلة يتسع واتخذت الرحلة وجهة متميزة نحو أروبا، وكان في مقدمة الرحالين عربيا رفاعة رافع الطهطاوي في رحلته إلى باريس وخير الدين التونسي وشهاب الدين الالوسي، وعبد الله فكري، واحمد فارس الشدياق وسليمان البستاني" [3].

ففي هذا القرن سنجد أن الرحلة قد شهدت نشاطا كبيرا، إذ هبت عليها نسمة النهضة، وذلك بفعل عوامل نذكر منها احتكاك العرب بالغرب الوافد إلى بلدان عربية خاصة ،مع حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798، و التي تعد مؤشرا لبداية النهضة العربية الحديثة إذ رافقه العديد من العلماء وفي مختلف الاختصاصات هؤلاء الذين جلبوا معهم مطبعة الأوامر والمنشورات [4].

---

[1]- كراتشوفسكي، اغناطيوس تاريخ الأدب الجغرافي ص 809

[2]- سميرة أنساعد، صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني ، مجلة التراث العربي دمشق ع 97 السنة 24 آذار 2005 ص 107

[3]- محمود حسين حسني أدب الرحلة عند العرب ص15

[4]- عباس بن يحي مسار الشعر العربي الحديث و المعاصر – دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، ت.ط الجزائر (عين مليلة) د.ت ص 18.19

وقد نتج عن هذا الاحتكاك تغيرات كان لها اثر بالغ على الذهنية العربية و لعل أهم ما شهده أدب المرحلة هو اتحاد الرحالة نحو الغرب، بل صارت " قاصرة عليه، وكان الأرض ليس فيها إلا غربها و قليل جدا إن لم يكن من النادر من يتطلع إلى الشرق، ولعل هذا مرجعه التقدم الكبير الذي أحرزه الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية، وتحديث أساليب العمل والإنتاج، وإقامة دور العلم الكبرى فلم يعد طالبوا العلم يشدون الرحال إلى بغداد، ودمشق والظاهرة كما كان العهد في الماضي، وإنما أصبحوا جميعا ينطلقون إلى باريس ولندن"[1].

المبحث الثالث: ***أقسام أدب الرحلة و قيمتها الأدبية***

أقسام أدب الرحلة:

يمكن أن نقسم أدب الرحلات إلى قسمين:

القسم الأول: رحلة واقعية و رحلة خيالية

القسم الثاني: رحلة شعرية و رحلة نثرية

الرحلة الواقعية و الرحلة الخيالية:أما الرحلة الواقعية فهي رحلة قام بها الرحالة حقيقية،

وقعت "ضمن مكان و زمان معينين ، و ينتقل فيها الرحالة من مكان جغرافي محدد إلى مكان جغرافي أخر"[2] و كذلك رسالة الغفران لأبي علاء المعري إلى جانب رحلة المويلحي المسماة حديث عيسى بن هشام ، و هذه الأخيرة كثيرا ما يعدها الدارسون إرهاصا لظهور

[1]- فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ص 81

محمد رياض – توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ودراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب

[2]ط دمشق 2002 ص 23

الرواية العربية المعاصرة ،إلا أن هذا العمل الأدبي يحوي على " رحلة زمنية و نقدية لأحوال مجتمع " مصر " و ثقافة الربع الأخير من القرن التاسع عشر "[1]

و إذا كان الرحالة في الرحلة الواقعية يتقل لنا ما شاهده في البلاد التي زارها بدقة كونه تنقل بجسده حقا فيها ،" فانه في الرحلة الخيالية يطلق أفكاره و مشاعره لتنقله بعيدا عن واقعه و عالمه إلى أماكن أخرى و أزمنة متباعدة، فالرحلة المتخيلة أو الخيالية لا تتأسس فعليا في الوجود الفيزيقي ، أو تتطلب معيشة على المستوى الواقعي ، و أخرى ذهنية تأسس لعالم متخيل يَجْنَح إلى صوغ أفكارو تأملات معينة تتماشى مع المثالية و العديد من المقولات و التصورات الصوفية، و الفلسفية، و الدينية التي ترسم رحلة النفس في بحثها عن عالم أخر يكون بديلا عن الواقع ،وصولا إلى الطلق و اليقين و الحقيقة و المعرفة الخالصة للتطهير".[2]
و لعل هذا ما دفع "شوقي ضيف " إلى القول بان " الإنسان ولد راحلا، و إن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال "[3]

و بعبارة أخرى : "انه يتخذ أساسا من الواقع ثم يدبر حوله وقائع مبتكرة ، كما فعل القصاصون الشعبيون مع رحلتي الإسراء و المعراج"[4]

---

[1] حسن محمد فهيم أدب الرحلات ص 176
[2] الرحلة في الادب العربي التجنس آليات الكتابة خطا المتخيل مرجع سابق ص 158
[3] شوقي ضيف الرحلات – دار المعارف ط1 القاهرة د.ت ص 07
[4] حسين نصار أدب الرحلة – دار نوبار للطباعة + الشركة المصرية العلمية للنشر ط1 القاهرة 1997 ص 49

الرحلة النثرية والرحلة الشعرية:

كما قد أسلفنا سابقا القول بان أدب الرحلة هو ذلك الفن النثري الذي يتخذ الرحلة موضوعا له ، لكن لا يجب إغفال وجود رحلات شعرية كان لها صدى كذلك و إقبالا على الدراسة من قبل الدارسين و الباحثين ، و لقد حاول أبو القاسم سعد الله الوقوف عند البعض من هذه الرحلات الشعرية الجزائرية سواء المكتوبة بلغة فصيحة أو مكتوبة باللغة العامية.

أما عن الرحلات النثرية : فيقول سعد الله أبو القاسم و يؤكد على أن تكون الرحلات نثرية يتحدث فيها أصحابها عن مشاهد اتهم و ملاحظاتهم بلغة واقعية، أو قريبة من الواقع[1]. "وهي تعتبر – الرحلات النثرية-أكثر شيوعا بالجزائر ، و لم تكن تتكلم عن المسائل العلمية و الشيوخ و أهل العلم فحسب بل جمعت في طياتها العديد من المسائل و المواضيع .

و من الرحلات التي ذاع صيتها رحلة أحمد بن عمار " نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب " وهي ثلاثة أقسام بقول "و رتبناها على مقدمة حائمة، و عرض مقصود، و خاتمة. فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم و نقدم على الارتجال ، و أما الغرض المقصود ففي ما يحدثه السفر إلى الإياب ، و حط الرحال ، و أما الخاتمة ففي ما نشأ عن ذلك بعد السكون و انظم إليه[2].

كذا نذكر رحلة الأمير عبد القادر إلى الحجاز التي تضمنت سيرته الذاتية في كتابه مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري "الذي ذكر فيه بأنه جال في عدة بلدان أن هناك منها

[1] الرحلة في الأدب العربي (التجنس ... آليات الكتابة ... خطاب المتخيل)، شعيب حليفي ص 165
[2] نبذة فن الكتاب المسمى نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب - ابن عمار أحمد - مطبعة بيرون فونتانة الجزائر ، 1902 ص 03

الشام و بغداد و الإسكندرية .....كما تحدث فيه عن زياراته للأولياء الصالحين و الأضرحة و الثقافة و مجالسه للعلماء .

أما الرحلات الشعرية : هي رحلات قام أصحابها بتدوينها أو ينظمها شعر" ومن أمثلة الرحلات الشعرية رحلة محمد بن المسايب التلمساني الى مكة المكرمة اعراجا على المدينة ، كذلك رحلة أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي بالمغرب الأقصى بعد عودته من الحجاز ، تتضمن مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم ووصف للبقاع المقدسة و آثار الحجاز و منازله ... " و من الرحلات الشعرية كذلك و المكتوبة باللغة الفصيحة قصيدة محمد بن محمد منصور العامري التلمساني (ق18).و قصيدة أخرى تندرج ضمن الشعر الملحون هي لمحمد مسائب التلمساني[1].

قيمتا أدب الرحلة :

زخر فن الرحلة بمؤلفات عدة منذ القرن الثالث للهجرة إلى يومنا هذا ، و لعل ما يميز هذه المؤلفات هو ذلك التباين الموجود بينها على مر العصور ، إذ أن هناك مؤلفات ذات طابع علمي يهدف من خلالها أصحابها تصوير الواقع كما هو ، اعتمادا على مشاهداتهم دون إضفاء الجانب الفني البلاغي ، في حين نجد مؤلفات أخرى تعنى برصد الواقع و نقل الصور و المشاهد على نحو يحقق التأثير الوجداني ، أو ينقل الأحاسيس و العواطف الذي

[1] ينظر د أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830) ج2 – دار الغرب الإسلامي ط1 بيروت 1998 . ص 388 و ما بعدها.

يجدها في نفسه من يجتلي تلك المشاهد و الآثار و الصور ، و هذا البعد هو الذي يملأ النفس متعة و تأثيرا ، و يجعل للرحلة سمة أدبية بدلا من أن تقف عند حد التسجيل و التدوين[1] .

و يمكن تحديد قيمتين أساسيتين لأدب الرحلة و هما القيمة العلمية و القيمة الأدبية:

أ- **القيمة العلمية**: تتجلى هذه القيمة في تلك المعلومات التي تقدمها في مختلف الاختصاصات التاريخية، و الجغرافية، و الاجتماعية، و الاقتصادية من وصف للمسالك و العمران و نمط المعيشة من عادات و تقاليد ،" ليكون أدب الرحلة بمثابة مدونة يلجا إليها الكثير من الدارسين لاستخلاص العديد من المعارف بكل اطمئنان و ارتياحية ، ففي مجال التاريخ مثلا تقدم الرحلات معلومات لم يقدمها لنا العلم المختص في هذا المجال ، فهي تنقل الاختصاص بواقعية و بكيفية حية ، فإذا كان التاريخ يعمل على وصف و استقصاء حياة البلدان و تاريخها بمختلف مظاهرها (السياسية ، الاجتماعية، الاقتصادية و الثقافية)" فان الرحلات أعطت كل ذلك بُعده المناسب، و تطرقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية فقامت الرحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجه إليها لاستجلاء الواقع و إخراج التاريخ عن حدوده الضيقة[2].

[1] سيد حامد النساج مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا ص 07.
[2] نوال عبد الرحمن الشوابكة ، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ص 52.

و من بين الأحداث التاريخية التي تعرض لها الرحالون بوضوح مجيء سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبي ، فقد أشار ابن جبير أثناء إقامته في مكة المكرمة ،إلى قدومه إلى الحجاز في طريقه إلى اليمن على اثر خلافا و قفته بين حكامها[1]

إلى جانب الأهمية الأخرى" و تتحلى في تلك المعلومات التي تقدمها في مختلف الاختصاصات التاريخية، و الجغرافية، و الاجتماعية ،و الاقتصادية التي تتجلى لنا من خلال مصنفات الرحالين العرب الأوائل ، فتنضم بذلك إلى التراث العربي الجغرافي و التاريخي، بما ساهمت به من مادة غزيرة و قيمة كانت نتاج نظر و معاني و استقصاء و قراءة من قبل العلماء الرحالين أمثال عبد الله المقدسي (ت 390 هـ) و محمد الإدريسي (ت 562 هـ) و أبي الحسن المسعودي" .

و يرجع محمد الخضر حسين[2] الفضل لكتب الرحلة، "في أنها حفظت لنا جانبا عظيما من التاريخ ، أودعت تلك الكتب الكثير مما شاهده مؤلفها ، من أحوال الدول ووقائعها ،كما إنها ساهمت في توطيد الصلات بين الشعوب و حصول التعارف بينها."[3]

و للإدريسي فضل في تطور منهج الوصف الجغرافي ، ورسم الخرائط حتى إن احد الدارسين ، و هو صلاح الشامي ، صاحب كتاب " الإسلام و الفكر الجغرافي " جعله أعظم جغرافي العصور الوسطى على الإطلاق .كما نُعِتت دائرة المعارف الإسلامية كتاب

---

[1] رحلة ابن جبير ص 117.

[2] الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، سميرة نساعد ،دراسة في النشأة و التطور و البنية – دار الهدى ، عين مليلة –الجزائر ص 2009 ص 37.

[3] أدب الرحلات في التراث العربي فؤاد قنديل مكتبة الدار العربية .القاهرة ط 2002،2 ص 344.

الإدريسي " نزهة المشتاق في اختراق الأفاق " بأنه : "أعظم وثيقة علمية في العصور الوسطى" فشهدت الجغرافيا العربية ازدهارا كبيرا بفضل مساهمات الرحالين العرب الأوائل كابن حوقل ، وابن الفقيه ، و اليعقوبي ، و ياقوت الحموي ، و غيرهم من الجغرافيين الرحالين.

ميزت هذه القيمة العلمية أدب الرحلة ذلك أن أصحابها شهود عيان لمختلف الأحوال والأوضاع ، حيث ازداد الاهتمام بهذا الفن مما أدى إلى ازدهاره، فالرحالة يتحرون استعمال الأسلوب العلمي في تدوين رحلاتهم و بذلك فهو يعكس لنا ما "وصلوا إليه من علم غزير وسعة فهم مع حرصهم على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأول و من لم يتسن له ذلك قام بتدوين رحلته عقب عودته إلى بلاده و التزام جانب الدقة، و قوة الملاحظة في كل صغيرة وكبيرة"[1].

و الرحالة المجتهد لا ينزل بوطن: "إلا التقى بطائفة من فضلائه ، و الشأن إن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية و الاجتماعية ، ثم إذا عاد إلى وطنه وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى"[2] .

---

[1] الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجري، دراسة تحليلية مقارنة ، عواطف محمد يونس تواب ،مكتبة الملك فهد الوطنية .د ط الرياض 1996 ص 88

[2] الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري،سميرة أنساعد ص 38

أما بالنسبة للجانب الجغرافي فإذا كان الرحالة يدون مشاهداته على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة علم الجغرافيا ، "فهو عندما يصف الممالك، و البلدان، و الأوضاع، والأقاليم و المدن و المسالك، و عندما يتحدث عن الطبيعة و المناخ، و ظاهرات توزيع السكان و غير ذلك مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية ، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة"

ففي مؤلفات أدب الرحلة العربي نجد أن القيمة العلمية تتجلى بشكل واضح كما هو الحال في رحلات المقدسي و البيروني إذ "لم يكن هدفهم الرئيس الرحلة في حدج ذاتها قدر اهتمامهم بوضع مؤلف في تقويم البلدان ، كما فعل المقدسي مثلا "أو وصف حضارة غير إسلامية كما جاء في دراسة البيروني للثقافة الهندية إننا نرى في هذه الأعمال و ما قدمت من مادة ثرية ، دليلا بارزا على قيمة رحلاتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة ، و المعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية و الاجتماعية و الثقافية للبلدان التي زارها أو أقاموا فيها "[1]

[1] حسين محمد فهيم أدب الرحلات ص 16

ب- القيمة الأدبية : إذا كان أدب الرحلة فن أدبي يحمل فائدة للمؤرخ و الجغرافي، و عالم الاجتماع، "فانه يحفل كذلك بكثير من الأساطير و الخرافات و بعض المحسنات البلاغية، و جمال اللفظ ، و حسن التعبير ، و ارتقاء الوصف ، و بلوغه حدا كبيرا من الدقة ، علاوة على ما يستعين به –أحيانا – من أسلوب قصصي سلس مشرق ، و هذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي"[1].

فان أدبية الرحلة تتجلى في عدة مواضع و ذلك من خلال تلك الأساليب الفنية التي تقدم فيها موادها لترتفع بها إلى عالم الأدب و ترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.[2]،

يرى الدكتور شعيب حليفي أن هناك نوعين من الرحلات المخيلة وجدا في الأدب العربي و هما يستندان في اختلافهما إلى مكون الفضاء بصفة أساسية فمكون الزمن و هذين النوعين من الرحلات هما :

1- **رحلات دنيوية** : و هي النصوص الرحلية التي يتم رسم أحداثها و وقائعها في الدنيا داخل فضاء يكون معروفا، أ مرموزا إليه في العالم الواقعي الأرضي في الأزمنة الثلاثة ، بحيث ينصب التركيز فيها ...الرحلات الدنيوية الزمنية في الماضي و الحاضر على مكون الزمن باعتباره البؤرة التي تحرك النص الرحلي في إطار تقابل المتناقضان

---

[1] سيد حامد النساج مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا ص 8.

[2] أدبي الرحلة عند العرب حسني محمد حسين ص 8.

و إضاءة منطقة الحلم المثال الذي تتحقق فيه القيم المفتوحة ، و تسمو الأخلاق و تسود العدالة ....و كلها تقديرات نابعة من الحلم المثالي بواقع آخر يطهر الحاضر الفاسد .[1]

2- **رحلات أخروية** : تضم الرحلات إلى الآخرة عوالم تخيلية مرتبطة بجنوح رسم عوالم الغيب ، و تخيل وقائع يوم القيامة و تصور ما يحدث في الجنة و الجحيم بأسلوب ترهيبي ترغيبي ، و هذا ما قام به العديد من الفقهاء في إطار ما يسمى بأدب القيامة ، و لعل "كتاب التوهم" للمحاسبي يبقى النص الذي يمكن اعتباره أنضج من غيره من النصوص التي تناولت الآخرة ، أما الجانب الآخر من النصوص التي تناولت الآخرة - تخيليا اليها فقد اختارت سننه مغايرة تميزها عن كل ما كتب ، و هي تخيل ما وقع في الآخرة من محاكمات للشعراء و الأدباء[2].

"فالرحلة المتخيلة جزء من نصوص الرحلة عموما ، يسودها جو عام فحواه البحث عن الأنا في الآخرة و الغير ، و كدا التطهير و الخلاص للوصول إلى بديل هو يقين ما استحال وجوده في الواقع الصيفي ، فتم طلبه و اللجوء إليه في الحلم و التوهم"[3].

فكل إضافة في الكتابة الرحلية تقدم "خدمة لفن الرحلة ، عن طريق التنويع في الكتابة ، و تخصيب التراث السردي ، و اغنائه ، و توثيق الصلة بين أشكال مختلف أدبية يهدف كل إلى سرد التجربة الذاتية ، و تعميق المعرفة بالعالم الآخر[1]"

[1] الرحلة في الأدب العربي – التجنس –آليات الكتابة – خطاب المتخيل شعيب حليفي ص 159

[2] نفسه ص 162

[3] نفسه ص 165

فمن الناحية الأسلوبية نجد أن أدب الرحلة يتنوع أسلوبه من سرد قصصي، و حوار ووصف دقيق للمشاهد المختلفة و العجيبة، هذا بالإضافة إلى تزويد رحلته بالعديد من الظواهر البلاغية - كالسجع و الطباق و الجناس و المقابلة ...- بطريقة مسترسلة دون تكلف أو مبالغة حتى لا تفقد الرحلة فحواها.

و كثيرا ما يلجأ الرحالة إلى التصوير، "فُيَعْمد إلى إبراز فكرته في صورة مرئية محسوسة و ملموسة عن طريق تحويل غير المرئي من المعاني إلى المحسوس و تعويم الغائب إلى ضرب من الحضور ...".[2] الأمر الذي يجعل القارئ يحس وكأنه رحالا مثله يشاهد كل ذلك بعينه ، طبعا كل هدا بفضل تجسد ما هو معنوي في صورة مادية حسية ، و لعل هذا ما دفع بشوقي ضيف إلى عد أدب الرحلة نتيجة لما تتسم به "خير رد على التهمة التي لطالما اتهم بها الأدب العربي ، و نقصد تهمة قصوره في فن القصة "[3]

فان القول أن أدب الرحلة فن يقترب من فن القصة راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة بعض الرحالة، هؤلاء الذين جنحوا إلى سرد القصص التي عاشوها أو سمعوا بها ، و كان سردهم لهده القصص بعفوية و حيوية ، قربت الرحلة من عالم القصة [4].

و إلى جانب هاتين القيمتين بإمكان أدب الرحلة أن يحقق قيمة أخرى لا تقل عن القيمتين السابقتين ألا و هي القيمة التعليمية ، فادا كان الرحالة يقدم لنا معلومات تاريخية و جغرافية

---

[1] الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري سميرة أنساعد ص 39

[2] الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث –بشرى محمد صالح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء –بيروت

[3] أدب الرحلات – شوقي ضيف ص 06

[4] أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري – نوال عبد الرحمن شوابكة ص36

و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية تكون بمثابة عون لكل عالم في مجاله و اختصاصه من الجغرافي و مؤرخ و اجتماعي ....فان هذا الرحالة يستفيد هو الآخر من هذه الرحلة إذ يتعرف على الكثير من المعلومات التي تخص البلد الذي زاره من خلال مخالطته للناس كما يستفيد من العلماء الدين جالسهم و تحاور معهم مع اكتسابه للخبرة و التجربة إذ يحصل على علم وافر وتجارب كثيرة في مختلف الميادين في التربية و أساليب التعليم و التهذيب نظرا لما يصادفه أحيانا من المصاعب و ما يؤكد دلك أن الراحل حين يعود يعمل في التدريس كما كان يكلف بالقضاء و مهام أخرى[1].

[1] المرجع السابق ص 53

الفصـــل الثاني

◈ **رحلة أبو القاسم سعد الله إلى وادي سوف "صيف في سوف" نموذجا.**

تمهيـــــــــد

◈**المبحث الأول**: الرحلــة و الرحالـــة

أ- التعريف بالرحالة

ب- التعريف بالرحلة

◈**المبحث الثاني**: القضايا التي عالجها الرحالة في رحلته

أ- الجانــب الفكــري

ب- الجانب الاجتماعي

ج- الجانــب الدينـــي

تمهيد:

بلغت رحلات أبو القاسم سعد الله في الجزائر ثلاثة رحلات رحلته الأولى كانت في 08 فبراير 1980 إلى خنقة سيدي ناجي التي كانت محل تركيزه في حين كانت رحلته الثانية إلى وادي سوف 1989 والرحلة الثالثة كانت سنة 1990 إلى وادي ميــزاب، وهي رحلات كلها منشورة في جريدة " **الشعب** " و لقد تضمن كتابة "تجارب في الأدب والرحلة " الرحلة الأولى و التي حملت عنوان زيارة إلى خنقة سيدي ناجي، إذ نجــده يقدم لمحة تاريخية عن هذه المدينة الأثرية، كان يأمل من رحلته هذه وصل ماضي المنطقة بحاضرها والاطلاع على ما بقي فيها من أثار عريقة تشهد بأصالة وادي سوف التي كانت موضوع حديث العديد من الرحالين، كما شغلت أقلام العديد من الدارسين قديما و فـــي الوقت الحاضر، إذ نقل لنا الرحالة أبو القاسم سعد الله العديد من العناصر الثقافية و الدينية و الفكرية و ذلك من خلال ما صادفه من مظاهر وعادات وتقاليد ومعالم أثرية ميــزت وادي سوف واصفا بذلك انطباعات أفراد مجتمعه مسجلا أساليب عيشهم وناقلا مختلــف فنونهم و صناعاتهم

المبحث الأول: الرحلة والرحالة:

التعريف بالرحّالة :

تعريف أبو القاسم سعد الله:

ولد أبو القاسم سعد الله ببلدة الوادي جنوب شرق الجزائر ، في الأول من يونيو سنة 1930م بضواحي قمار، درس بجامع الزيتونة من سنة 1947 حتى 1954. و احتل المرتبة الثانية في دفعته، بدأ يكتب في صحيفة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1954.

كان يطلق عليه لقب " الناقد الصغير " كما درس بكلية الآداب و العلوم الإنسانية في القاهرة، و حاز على جائزة أو شهادة الماجستير في التاريخ و العلوم السياسية سنة 1962ثم

انتقل إلى أمريكا سنة 1962 ، حيث درس في جامعة منيسوتا " Minnesota" والتي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الانجليزية سنة 1965 إضافة إلى إتقانه للغة العربية والانجليزية اتقى كذلك اللغة الفارسية و الألمانية

و لقب أبو القاسم سعد الله بشيخ المؤرخين الجزائريين، فهو باحث و مؤرخ حفظ القران الكريم، وتلقى مبادئ العلوم واللغة وفقه الدين، وهو من رحالات الفكر البارزين، ومن أحلام الإصلاح الاجتماعي والديني، له سجل علمي حافل بالإنجازات وتقلد عديد المناصب وقام بالعديد من الترجمات لأمهات الكتب.

وفاته:

توفي أبو القاسم سعد الله عن عمر يناهز الثلاثة والسبعين عاما (73عاما) و كان ذلك في 12 ديسمبر عام 2013 ، بالمستشفى العسكري في أثناء علاجه من مرضه[1].

أثــــاره :

لقد اثر أبو القاسم سعد الله المكتبة العلمية بنوادر وتحف فكرية، تمثلت في بعض من مؤلفاته و نذكر منها:

موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي (9 مجلدات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998

أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر(5 أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993-2004 .

---

[1] ويكيبيديا الحرة : الموسوعة الحرة ، الموقع https//art.wiki pedia.org سا 18:20 / 24-03-2016.

- الحركة الوطنية الجزائرية(4 أجزاء) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1989 - 1997-1992
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)،ط 1 مصر،1970،ط 3 1982.
- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003 .
- الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، الجزائر 1985.
- سعفة خضراء، ديوان سعد الله، الجزائر 1986.
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الأدب، بيروت، 1966.
- تجارب في الأدب و الرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر 1982.
- منطلقات فكرية، ط 2، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا 1982.
- أفكار جامحة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1988.
- قضايا شائكة ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، 1989.
- في الجدل الثقافي، دار المعارف ، تونس ، 1993
- هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر 1993.[1]

التعريف بالرحلة:

"رحلة أبو القاسم سعد الله من الرحلات التي تتحدث عن رجل الجنوب الجزائري في القرن العشرين حيث أنه من خلال رحلته كان يأمل ربط ماضي المنطقة بحاضرها والإطلاع على ما بقي فيها من أثار عريقة تشهد أصالتها وأصالة الرجل الصحراوي وكرمه "[2] واستطاع الرحالة أن يوثق ويكشف عدة جوانب منها الاجتماعي والفكري والديني ويعرفها للقارئ حتى تتطلع عليها الأجيال اللاحقة، فتدرك ما تدركه وتعايشه خاصة أن البعض منها متعرض للضياع، فلولا هذا الفن لضاعت العديد من الثقافات وبذلك يعتبر أدب الرحلة ذاكرة حية

[1] ويكيبيديا الحرة : الموسوعة الحرة ،الموقع https//art.wiki pedia.org سا 18:20 / 24-03-2016.

[2] أبو القاسم سعد الله صيف في سوق الحلقة الأولى

تعكس أصالة هذه الثقافة[1]، "ولقد كان للرحالة أبو قاسم سعد الله دور بارز من خلال نقل هذا الأدب والصمود والوقوف في وجه رياح الحداثة وتقديمه بصورة متكاملة من خلال تصويره مدى تمسك بعض المناطق بها وممارستهم لها ووصفها بدقة متناهية من قيم وفنون وآداب"

فرحلة أبو القاسم سعد الله رحلة تزخر بمورثين اجتماعي ومادي من مساجد وزوايا وتركيزه على خنقه سيدي تاجي التي كانت موضوع حديث العديد من الرحالين والتي تعرف بزاويتين الناصرية والرحمانية كما شرحها في رحلته قائلا "وكان في الخنقة زاويتان الناصرية والرحمانية وركز أيضا في البحث عن أهم المعالم الأثرية التي تمثل وادي سوف.

وإلى جانب صور حسن الضيافة وحرارة الاستقبال نستخلصها في أدب الرحلة[2] نجد أن الإنسان الجزائري عامة والبدوي خاصة لا يزال يتحلى بقيم أخلاقية نبيلة ورثها عن أجداده كقول الحق والابتعاد عن الزور[3].

إن ظلال النيل والكرم متأصلة في عروق البدوي الجزائري السوفي محفوزة في ذاكرته يمارسها بكل عفوية فالفقير منهم إذا كان يملك شاة واحدة وحل بها ضيف فإنه لن يتأخر بنحرها إكراما له، وفرحا به فكانت هذه السمات بمثابة متحف حفظت فيه تلك الفضائل التي ضاعت في ناحية أخرى.

---

[1] المصدر نفسه الحلقة نفسها
[2] أبو القاسم السعد صيف في سوق الحلقة الثاني
[3] المصدر نفسه الحلقة نفسها

ووادي سوف كما يصنفها العدواني هي بلاد المتعة ولقد نعتها بهذه السمة كونها تمنع الهاربين إليها من أن يحلقهم سلطان أو جيش، وقد قال عنها أيضا بأنها كانت براحا للذئاب قبل أن يعمرها أهل سوف ويعيشون فيها على هامش العالم[1].

إذ أن هناك من الآراء ما تنظر إلى هذا الأدب بما يحتويه من عادات وتقاليد نظرة تخلف وازدراء كما فيه من بعض الأفكار البدائية القديمة وبعض المعتقدات الخرافية السلبية صحيح هي مخلفات الماضي السحيق ومن أمثلة ذلك لباس أهل سوف اللباس الأبيض في فصل الصيف لأن اللون الأبيض لا يمتص الحرارة وبالتالي فهو يخفف من شدتها، كما أن أجدادنا يبنون بيوتهم بمواد الجبس والطين ... وهذه المواد هي مواد مكيفة باردة في الصيف ودافئة في الشتاء[2]

المبحث الثاني: القضايا التي عالجها الرحالة في الرحلة

الجانب الفكري :

ففي رحلة آبي القاسم سعد الله إلى وادي سوف نجده يشير إلى بعض المطبوعات الأثرية وأهم ما جاء فيها، وبما أن مدينة سوف تعرف بمدينة العلم والعلماء فإنها سجلت عبر العصور عددا هائلا من العلماء خلدوا تاريخها، ومن هؤلاء الشيخ العدواني الذي يعد "شخصية تاريخية من مواليد قرية "الزقم "إحدى قرى سوف ومن رحالات تلك المنطقة القدامى كان عالما مولعا بالبحث والتنقيب أدى ميله هذا إلى الكتابة في ميدان التاريخ فألف كتابا في تاريخ سوف قام بترجمته إلى الفرنسية السيد ش. فرويد ، CH.Feroud سنة 1868م."

---

[1] أبو القاسم سعد الله صيف في سوق الحلقة الثانية.
[2] المصدر نفسه الحلقة نفسها

وكتابا ثانيا يحمل اسم صحراء قسنطينة ترجم سنة 1887 "[1] والكتاب الأول للشيخ العدواني هو الذي وقف عنده الرحالة أبو القاسم سعد الله ، انه " يؤرخ لأحداث سوف والجريدة والزبيان خلال فترة ما بعد ابن خلدون[2] .

كما سجل الرحالة أبو القاسم سعد الله العديد من المعلومات التاريخية والثقافية التي حواها هذا المؤلف، منها أنّ العدواني تحدث "عن أعراش وعائلات وقبائل في الجريدة منهم أولاد الهادف،والهمامة ، وأولاد مزروع و العرج ، والشابية ،وغيرهم، بالإضافة إلى مدن ثَمَغْزَة و الحامة،و نَفْزَاوة وباجة والقيروان و نحوها"[3] .هذا إلى جانب حديثه عن مدينة حزوة والتي تعرف اليوم "نفطة" الواقعة على الحدود التونسية، وبما أن كتاب العدواني يؤرخ وادي سوف ،جعل الرحالة سعد الله يستغرب جهل الناس هناك لهذا الكتاب حيث يقول " واستغربت من أنّ الذين ذكرت لهم كتاب العدواني لم يعرفوه عدًا واحدا قال انه سمع به."[4]

كما قدم الرحالة أبو القاسم سعد الله لمحة عن حياة ابن خلدون ، و مما قاله " هو الذي كتب (المقدمة) و فلسف على الاجتماع و الذي تداولت عائلته القضاء في الأندلس أجيالا ، ومارس السياسة حتى غرق فيها إلى الأذقان في المغرب وتلمسان و تونس، ينتهي مفتيا ومادحا لتيمور لنك و قاضيا متزلفا لمماليك مصر من الجراكسة والأتراك، لقد خرج ابن خلدون من المغرب العربي غاضبا و هاربا من السلاطين المتصارعين والبدو المخربين والفتن المتلاحقة "[5] .

الجانب الاجتماعي:

---

[1] إبراهيم محمد الساسي العوامر،الصروف في تاريخ الصحراء و سوف ،منشورات شالة ،د ط الجزائر (الابيار) 2007،ص 98 .

[2] أبو القاسم سعد الله ،صيف في سوف ،الشعب ،الحلقة الاولى

[3] المصدر نفسه ،الحلقة الثانية (31 اكتوبر1989)

[4] المصدر نفسه الحلقة نفسها

[5] أبو القاسم سعد الله ' ضيف في سوف ' الشعب .الحلقة الأولى .

أما فيما يتعلق بطبيعة الحياة اليومية ، فإنها لا تخرج عن تراث أجدادنا ، فالرحالة ابو القاسم سعد الله على الرغم من أنه ألف حياة المدنية بصخبها، إلا انه هذا لم يعمل على انسلاخه عن موطن أجداده ، بل انه المكان الذي يحق إليه ليشعر بدفء العائلة فيه ، بل هو " الراحة المطلقة من عناء المدن وشقاء الزحام المتكدس، وهي الليالي الجميلة ذات النسيم المنعش ، وهي النجوم الزاهرة التي تسهر مع الإنسان في وحدته وتأملاته، و هو القمر الزاهي المليء بالضوء حتى يكاد يندلق منه ، وفوق كل ذلك وادي سوف هو مهبط الحدود وموطن الآباء[1].

فالإنسان في وادي سوف هو إنسان بدوي بسيط سواء في أكله أو لباسه أو في سلوكه مع الآخرين ، وهذا يتماشى مع طبيعة الحياة البدوية ففي الصيف لا يخرج لباس السوفي عن القندورة البيضاء، و اللون الأبيض لم يتم اختياره بطريقة عشوائية و إنما له دلالة لأن وادي سوف تضع في الجنوب الشرقي لمدينة بسكرة، أهم ما يميزها هو الجرارة اللافتة للوجوه لذلك يغلب اللون الأبيض على لباسهم ، لان الأبيض يصد الحرارة، وبالتالي يقيهم من شدتها، كما انه " لباس يختلط بالطبيعة في كل شيء فالرمال بيضاء، والشمس تبيض أشعتها بانعكاسها على الرمال والثياب كلها تقريبا بيضاء أيضا "[2].

وسكان البادية معروفون بالنشاط والحيوية،فهم كالنحل يشتغلون منذ طلوع الفجر فلا تمنعهم حرارة ، ولا ترهقهم مشقة عن عملهم، إن سمة الصبر بادية على وجوههم فكأنهم خلقوا مع الصبر، أو إنهم أحفاد أيوب -عليه السلام- إنهم يعملون أناء النهار وأطراف الليل لا تمنعهم من العمل العواصف الرملية الهوجاء و لا الحرارة الغاضبة، وهم لا يعرفون العطل

---

[1] المصدر نفسه الحلقة الثانية .
[2] المصدر نفسه الحلقة نفسها.

الأسبوعية ولا يتوقفون عن العمل في المواسم الدينية ولا الوطنية، ولا معنى عندهم للنقابات التي تحدد لهم أوقات العمل، وتدافع عن حقوق العمال"[1] وهذا الانضباط والنية الحسنة جعل في العمل هو الذي جعل سكان البادية عموما وأهل سوف على الخصوص يعيشون حياة سعادة وهناء رغم صعوبة الطبيعة.

ومن صفاتهم الذكاء والفطنة،فهم سرعان ما ينتبهون للأشياء و يتفطنون لها إذ يفهمون الشخص المتكلم بسرعة ويستوعبون مقصدهم، سواء كان ذلك من خلال حركاته وطريقة تعبيره، أو من حديثه ، كما أن النكتة تصاحب غالبا حديثهم ويكون وراء كل هذه النكتة مقاصد، فقد تكون للترفيه عن المستمع وإضفاء بسمة على وجهه ، كما قد يكون سكان الصحراء عموما مفطورون على الحكم والكلام الدال فهذه الصفات معروفة لدى أهل سوف أو مناطق أخرى من صحرائنا العميقة،وهذا ما عبر عنه أبو القاسم سعد الله بقوله :"والذين يعرفون طبائع أهل الصحراء عامة وأهل سوف خاصة يعرفون إنهم سريعوا البديهة حاضروا الذهن، مفطورون على النكتة الذكية والإشارة الدالة، والحكمة العميقة وهم مهرة في إحكام على الشخص من مفهوم حديثه لا من منطوقه ، ومن حركاته ومشيته لا من تعبيره".[2]

ومن الأعراف السائدة في المجتمع وادي سوف خروجهم ليلا في فصل الصيف للفسحة و التهوية و شم الهواء النقي المنعش الذي يكون حارا ملوثا في النهار كما أنه من عاداتهم

---

1 أبو القاسم سعد الله ،صيف في سوف الحلقة الأولى
2 المصدر نفسه

النوم في وسط الحوش في فصل الصيف ، إذ قل ما تجد شخصا ينام في الغرفة ، فالكل ينام في حوش البيت، والذي تكون فيه برودة منعشة تساعد الإنسان على النوم بكل ارتياحية. كما أن هناك من ينام في وسط الشوارع ، لا يكون نومهم في الغرف و إنما وسط الأحواش وحتى في أطراف الشوارع و الأماكن العامة المنعزلة و المفتوحة.[1]

إن مظاهر الحفاوة والاحتفال التي كانت بوادي سوف بل و في كل القطر الجزائري تضفي عليها النسوة لمسة خاصة .لأن المرأة الجزائرية ولا سيما البسكرية ميالة إلى الأعراس و الأفراح، إذ ينتظرون بفارغ الصبر عن سبب حتى يحتفلن بطريقتهن الخاصة "فهن اللاتي ينتظرن فرص النجاح والختان و الزفاف ليباهين بالولد الفائز والصبي المطهر و الفتاة المخطوبة ،و يَاوَيْح المرأة التي ليس لها ما تباهي به الجارات"[2].

ولا زال أهل سوف متمسكون ببعض العادات المرتبطة باحتفالاتهم فعند ختان أطفالهم مثلا يأخذون ذلك الجزء المقطوع و يعلقونه في جذع النخلة بعد أن يوضع في صرة ، شرط أن تكون تلك النخلة صغيرة لتحمل اسم ذلك الصبي و كان الرحالة قد وجد النخلة التي تحمل اسمه و عبر عنها قائلا :" فكانت لي نخلة باسمي بين النخيل – و قد وجدت رفيقة العمر قد اعتراها أيضا ما اعترى الأخريات فامتدت إليها يد الفناء ، ولم يبق فيها إلا شوشة ذابلة تشبه مفرق امرأة عجوز شمطاء "[3].و هذه الممارسات "لم تمض بصمت ، فقد مارسها

---

[1] المصدر نفسه ،الحلقة الثانية
[2] أبو القاسم سعد الله، صيف في سوف الحلقة الأولى
[3] المصدر نفسه – الحلقة الثانية

هذا الإنسان و أعاد ممارستها حسب ما تقتضيه حياته و حاجاته اليومية ، كما أن هذه الممارسات استمرت حية توارثها أبناؤه على مر العصور ".[1]

ففي واد سوف" أهم ما يميز أفراحهم طلقات البارود التي ما زال الإنسان السوفي يتمسك بها وارثا إياها عن أجداده ، فدَوِيُ هذه الطلقات هي إعلان عن الفرحة ،و تعبيرا عن مشاعر السياة ، و إذ كان ثمن الطلقة غال، إلا انه لا شيء ضروري في أي فرح تحول الليل إلى أفراح تكاد تكون دائمة، بارود يَصُك الأذان و يرعد الرمال من تحت الأرجل، رغم أن الطلقة الواحدة بعشرة دنانير للفارس الذي يطلقها."[2]

ولم تكن طلقات البارود هي الميزة الأساسية لأفراح وادي سوف ، "و إنما كانت الزغاريد هي الأخرى بارزة في أفراحهم ، يعبّر بها النسوة بطريقتهـن الخاصـــة و خصوصيتهن ،و الزغاريد النسوية يقابلها طلقات البارود الرجالية "، فكل جنس له طريقة خاصة به في التعبير.

و إذا كانت هذه الاحتفالات قد ميزتها الروح الجماعية ، فان هذه السمة (روح الجماعة) تبرر كذلك في أوقات الشدة من وفاة أو ضياع شخص ، ففي رابعة النهار تسمع أحيانا المنادي ينادي مكبر أحد المساجد معلنا للسكان أن طفلة أو طفلا خرج من حوش أهله و لم يرجع ثم يأخذ في وصفه ووصف لباسه ، و يناشد من عثر عليه أن يأخذه إلى أهله (حوش

---

[1] سعيدي محمد – الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ص 16-17.
[2] أبو القاسم سعد الله، صيف في سوف الحلقة الثانية

فلان) وفي ذلك من التضامن و التكافل ما فيه ' و هناك تضامن من نوع أخر لا يقل أهمية فمن وقت إلى أخر تسمع في المكبر عبارة " الله اكبر " " الله اكبر " ثم تسمع بعدها أن فلانا أو فلانة قد توفاه الله و إن جنازته ستقع على الساعة كذا ، فيأتي الناس من قريب ومن بعيد تشييع الفقيد و تقديم التعازي لأهله ، و الوقوف مع أهل المصاب ومساندته ومؤازرته للتخفيف من وطأة همومه

إن هذه الصفات و غيرها تثبت أن مجتمع سوف و كغيره من المجتمات البدوية الجزائرية، مجتمع منافي و متكافل تسوده الروح الجماعية ، و هي سمة بارزة في وادي سوف كما تبرز في مختلف المناطق البدوية الأخرى إذ لا يوجد مجتمع يتتبع حياة الشخص في مظاهر حياته من كل نواحيها مثلما نجد في هذا المجتمع المحافظ[1] .

فقد ذكر أبو القاسم سعد الله في رحلته إلى سوف فيذكر لفظة متداولة بين أفراد المجتمع السوفي و هي لفظة " السيوف" بلهجتهم المحلية و هذه اللفظة غير معروفة في بعض المجتمعات ' و يقصد أهل سوف " السيوف " الكثبان الرملي ذات الشفرات السيفية يقول الرحالة " و غوصت قدمي في رمالها الناعمة المتحركة و صعدت و هبطت كثبانها ذات الشفرات السيفية و صدق من سماها " السيوف" في اللهجة المحلية "[2].

و لعل أهم ما وقف عليه أبو القاسم سعد الله هو الحوش الذي فيه و تربى بين أحضانه "فعلى الرغم من أن المكان أصبح بال أكل منه الدهر حتى شبع إلا انه ما زال يحمل في نفسه الكثير

---

[1] المصدر نفسه ' الحلقة الثانية.
[2] المصدر نفسه الحلقة الثانية.

من الذكريات أنها ذكريات الطفولة و الصبا المفعمة بمشاعر الحب و الحنين و الإحساس فيه بالحنان و الأمن بل انه البيت الذي شارك فيه يوميا في بنائه "، لأن البيت الذي ولد فيه محفور بشكل مادي في داخلنا انه يصبح مجموعة من العادات العضوية بعد مرور عشرين عاما ، إن البيوت المتعاقبة التي سكناها جعلت إيماءاتنا عادية و لكننا نندهش حين نعود إلى البيت القديم بعد تجوال سنين عادية ، إن نجد أدق الإيماءات و أقدمها تعود للحياة دون أدنى تعبير[1].

3- الجانب الديني :

لا يزال المجتمع السوفي متمسكا بالعديد من المعتقدات كزيارة الأضرحة، و التبرك بكرامة الأولياء، والخضوع لبعض المرابطين ، و هذه المظاهر شهدها المجتمع السوفي وكغيره من المجتمعات الأخرى خلال الفترة الاستعمارية و بعد الاستقلال "و نذكر أبو القاسم سعد الله في رحلته إلى سوف إن المجتمع لا يزال متمسكا ببعض المعتقدات القديمة منها تلك المعتقدات المرتبطة بالزمن ،و لقد لجأإليها في وقت كان بحاجة إلى تفسير بعض الظواهر" ،فإذا كان الإنسان على علم بالبعض و يحس بأنه متأكد منها مثل تعاقب الليل و النهار، أو الشتاء و الصيف، و لكن تبقى طائفة كبيرة من الأحداث المحتملة لا يستطيع أن يكون متأكد منها ،و موقفه إزاءها كموقف الطفل ،و من اجل ذلك فانه يخافها[2].

---

[1] أبو القاسم سعد الله ،تجارب في الأدب والرحلة ص 28.
[2] فوزي العنتيل ،الفلكلور ما هو ؟ ص 118

كما أن للزمن نصيبا عند أهالي الجنوب خاصة أهالي وادي سوف ،فهم لا يعتمدون على الساعة ، بل لا معنى لها عندهم ،و إنما هناك مقاييس يستعينون بها في معرفته ، " ومن هذه المقاييس نذكر كخيال الظل، وشروق الشمس و غروبها ،و مواقيت الصلاة ، و ميلاد النجوم في الليل ،و لعل هذا ما جعل الرحالة أبو القاسم سعد الله يستغني عن ساعته ويتحرر من الزمن " حتى الزمن تحررت منه منذ وصولي إلى سوف ، نزعت ساعتي و خبأتها ، فلم أعد أعرف الوقت إلا كما يعرفه أهل سوف ، و هو خيال الظل ، و شروق الشمس وغروبها ، و مواقيت الصلاة ، و ميلاد النجوم في الليل إن الساعة لا معنى لها هنا"[1].

بل إنهم أحيانا بين الأيام و الشهور، ففي فصل الصيف مثلا لا يعرفون أيامه و شهوره، و إنما ما يعرفونه هو تلك المصطلحات الدالة على انخفاض درجة الحرارة شيئا فشيئا واقتراب نسمة الخريف، من هذه المصطلحات المتعارف عليها بين سكان أهل سوف (الوسطاني) و (اوسو) و (غشت) و غيرها من مصطلحات تقدم الحرارة و اقتراب الخريف.[2] يروي الرحالة أبو القاسم سعد الله في رحلة له إلى خنقة سيدي ناجي "أنه كان بزاوية الشيخ عبد الحفيظ، عليه سبحة ضخمة ذات حبات بنية اللون الواحدة منها في حجم حبة الكرز ، و قد قيل لي أنه كان بها ألف حبة ، غير أن الزوار أخذوا منها للتبرك

---

[1] أبو القاسم سعد الله ،صيف في سوف الحلقة الأول

[2] المصدر نفسه الحلقة نفسها

فتناقصت"[1] لان هؤلاء الأولياء في منظور الناس هناك رجال صالحون لهم القدرة على الأفعال الخارقة ، وقدرتهم هذه ستبقى بعد وفاتهم لذلك يبقى الضريح ملجأ للزوار .

و إذا كانت الزاوية في القديم تقوم بأغراض عدة : تعليم القران الكريم ، تقديم دروس في اللغة العربية ، المحافظة على الدين الإسلامي في عصر الجهل ، محاربة المستعمر و الذي عمل في كثير من الأحيان على القضاء على مقومات و تعاليم الدين الإسلامي ، و طمس الهوية الجزائرية ، إلا أن النهضة و التقدم الحضاري لم يقفا كحائل على نشاطها و لم يقللا من قيمتها ، فهي مازالت موجودة و قائمة بدورها بكل مرونة و فعالية ، بل تضاعف دورها و ازدادت أهميتها ، لا شيء إلا لأنها الزاوية "تراث ثقافي عريق تفرز النَّسَغْ الحياتي المغذي للنظام الاجتماعي من جهة ، و هي المنظم لعملية السيرورة الاجتماعية من جهة ثانية ،و هي من جهة ثالثة و عند الاقتضاء ،التي تشكل السلطة المرجعية التي تتولى حماية المجتمع من التبدد و الذوبان ، و هي تقوم بالدفاع عن كيانه ووجوده.[2]

ومن أهم الزوايا التي وقف عندها الرحالة ابو القاسم سعد الله في رحلته ووضعها بكل ثقة واثبت وجودها و دورها هي :الزاوية الناصرية و الزاوية الرحمانية ، بل إن رحلته

---

[1] أبو القاسم سعد الله ،تجارب في الأدب و الرحلة ص 262،263

[2] محمد الطاهر عدواني،تقود المقاومة و تشارك حرب التحرير ، أعمال الملتقى الوطني الأول حول دور الزوايا إبان المقاومة و الثورة التحريرية المنعقد بجامعة اسبانيا –وهران- يومي 25- 26 منشورات وزارة المجاهدين ،الجزائر،2007 ص 81 .

كانت لهذا الغرض و هو يعترف بذلك قائلا :" و إنما اهتمامي الآن بالمعالم الأثرية والمراكز العلمية لهذه المدينة التي عرفت ازدهارا علميا في القرن الثاني عشر للهجرة (18م) فإذا بها اليوم تنسحب من المسرح تماما"[1]

إن أبو القاسم سعد الله كان يأمل من رحلته هذه وصل ماضي المنطقة بحاضرها و الاطلاع على ما بقي فيها من أثار عريقة تشهد بأصالة قرية سيدي ناجي ، كيف لا و خنقة سيدي ناجي كانت موضوع حديث العديد من الرحالين ، كما شغلت أقلام العديد من الدارسين قديما و في الوقت الحاضر، و يؤكد الرحالة ذلك مشيرا إلى أن كل من قرأ ما كتبه الرحالون والدارسون عن خنقة سيدي ناجي قبل الاحتلال الفرنسي تحن نفسه إلى رؤيتها اليوم للاطلاع على ما بقي من أثارها. وأنا من هؤلاء فقد شغلت مأثر الخنقة القديمة حيزا طيبا من كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) خلال العهد العثماني ، و كنت قد قرأت ما كتبه عنها عبد الله العياشي المغربي ،و الحسين الورتلاني ،و خليفة بن حسن القماري و غيرهم."[2]

و تعرف الخنقة بزاويتين هما : الناصرية و الرحمانية كما شرح أبو القاسم سعد الله في رحلته قائلا : "و كان في الخنقة زاويتان : الناصرية و الرحمانية ..."[3]. أما الزاوية الناصرية فنسبة إلى محمد بن ناصر، قديمة تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري "[4] وكان بالزاوية جامع كبير و مدرسة ينشطان بقوة بغية نشر العلم و تخليص أفراد المجتمع من الجهل و الأمية ، إلى جانب نشر تعاليم الدين الإسلامي ، و التي غالبا ما حاول المستعمر الدوس عليها.

---

[1]أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب و الرحلة ص 259.

2 أبو القاسم سعد الله ،تجارب في الأدب و الرحلة ص 257

3 المصدر نفسه ص 260

4 المصدر نفسه الصفة نفسها

و يقدم الرحالة معلومات عن هذه المدرسة المتواجدة بالزاوية ، و التي تقوم بتقديم خدمات جليلة لطلابها و دارسيها ، و هنا تكمن أصالة هذه المراكز الدينية ، "وكانت المدرسة التي ما تزال قائمة ، تحتوي عل خمس عشرة غرفة ، و تضم كل غرفة من خمسة إلى عشر طلاب ، و قد تجلت في هذه المدرسة التي تعرف بالناصرية ، و في الجامع و بين الأضرحة فوجدت وسط المدرسة باحة و حولها الغرف لسكنى الطلبة في طابقين ، و لها بابان ، ذلك أن الطالب كان يقرأ القران في المدرسة و يبيت فيها ، وعندما ينضج علميا يحضر حلقات الدرس في الجامع المجاور (جامع سيدي مبارك أو الكبير)[1].

و لهذه الزاوية دور كبير في الخنقة ، "تعلم القرآن و نشر العلم هذا إلى جانب مهمة إطعام الفقراء، إلا أنه بعد اندلاع الثورة قلت مهامها فأصبحت تقتصر على العبادة فقط "ولاشك أن زاوية الشيخ عبد الحفيظ قد بدأت بنشر العلم، وإقراء القرآن، و إطعام الطعام للفقراء شأنه في ذلك شأن معظم الزوايا في القديم ، ثم اختفى دورها العلمي مع تقدم الاستعمار، و اقتصرت وظيفتها على الأمور التعبدية ، حتى إقراء القرآن قيل لي أنه لم يعد بها منذ اندلاع الثورة"[2]

إن أبا القاسم سعد الله يقدم من خلال رحلته معلومات تاريخية جد مهمة عن هذه المراكز الدينية كسنة البناء، و سنة التجديد ...هذا إلى جانب تقديم الدور التي تقوم به .

فمن هذه المساجد التي ذكرها أبو القاسم في رحلته إلى وادي سوف نذكر منها :

---

1 المصدر نفسه ص 261

2 أبو القاسم سعد الله –تجارب في الأدب و الرحلة ص 263

1-مسجد كرزدة : كرزدة اسم قبيلة من القبائل القديمة ، و هذا المسجد قد اندثر ، قام الفرنسيون بهدمه و القضاء عليه "سنة 1957 و بنوا فوقه و سكنوا البناء الجديد ثم غادروه بدون أن يبقى أثر المسجد" [1] و هذه الأعمال التي قام بها المستعمر ليست بغريبة، لأن المستعمر كان يمس الجزائري في صميم هويته ، ولكن رغم ذلك بقيت المراكز الدينية تؤدي دورا هاما في المجتمع السوفي و ذلك من خلال نقل، و نشر، و إعادة إنتاج الثقافة الدينية الإسلامية و ما تحمله من قيم و أخلاق و معاني وسلوكات اجتماعية هذا إلى جانب نشر قيم المحبة و التسامح بين الجزائريين[2].

2-مسجد سدراتة : نسبة إلى اسم قبيلة تدعى سدراتة " هي من بطون زناتة البربرية " ومسجد سدراتة بني في عهد الدولة العثمانية أي قبل دخول الفرنسيين و تقام فيه الصلوات الخمس بطريقة غير منتظمة ، و هو المسجد الذي قرأ فيه الشيخ أحمد زروق بن مكي المذكور قبل ذهابه إلى خنشلة. إذا كانت هذه الزاوية بجامعها، و مدرستها قديمة إلا أن النقوش المتواجدة بها استطاعت أن تحفظ العديد من المعلومات عنها ، و هذه النقوش حملت تواريخ نسيها أصحاب المنطقة ، منها شكل الكتابة المنقوشة التي تقول أن المدرسة " بنيت على يد أحمد بن ناصر في شهر رجب سنة1171 و الغالب على الظن أن هذا التاريخ هو تاريخ التجديد و ليس تاريخ البناء الأصلي"[3] و إلى جانب هذه النقوش الكتابية ، هناك نقوش على الرخام حملت تراثا أصيلا بعينه عبر عنها الرحالة بطريقته الخاصة ، و توجد نقوش رائعة الجمال على الرخام المحيط بالباب الخارجي للمدرسة تحتاج إلى التصوير و الحفظ في أحد المتاحف لأنها على وشك الضياع ،" فهي تحفة فنية من التراث المحلي و الوطني فليت مصلحة الآثار تلتفت إلى هذه النقوش فتصورها و تحفظها[4]

---

[1] المصدر نفسه ص 260
[2] المصدر نفسه
[3] أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب و الرحلة ص 261
[4] المصدر نفسه الصفحة نفسها

إذ وصفها أبو القاسم سعد الله وصفا دقيقا حيث أن هذه النقوش لها قيمة كبيرة فبفضلها حفظت لنا تواريخ جد مهمة ، كما أنها تقلت لنا معلومات لا يستطيع أن يستغنى عنها المؤرخ، و مما كان منقوشا على محراب الجامع تلك المعلومات التاريخية التي تقول :" أن باني الجامع هو محمد بن محمد الطيب أواسط شهر صفر سنة 1171هـ ، كما أن ناقش المحراب هو أحمد بن عمر التونسي ، و هناك تاريخ آخر يشير الى ان القبة ضريح الشيخ سيدي مبارك و الجامع قد بنيا سنة1171هـ،و أن تكاليف البناء قد بلغت 8113 بعملة ذلك الوقت "[1]، اذن وظيفة هذه النقوش لم تتوقف على إبراز جمال هذه المعالم الأثرية ، وإنما أفادت العديد من المؤرخين ، فهي سجل لمعلومات تاريخية : تاريخ البناء ، اسم الباني ،معلومات عن الأولياء ، و مما ذكره الرحالة أبو القاسم سعد الله على ضريح سيدي مبارك قوله : " أما على ضريح سيدي مبارك نفسه قد وجدت مكتوبا عليه أن على بن حسين باي قد أودع فيها **شهادة أن لا اله إلا الله** و أن ناقشها هو الأصطا حسين سنة 1151هـ وهناك أضرحة كثيرة في غرف خاصة تضم أحداث أولاد حسين، وأولاد مبارك بلمكي بعضها مازال يحمل تاريخ الوفاة، و البعض محت الرطوبة و البلى تاريخه ، وقد قرأت في مقبرة أولاد حسين أن أحمد البدوي بن حسين توفي سنة 1352هـ/1934م "[2]

"إن هذه النقوش الكتابية ذات قيمة كبيرة تاريخية و ثقافية تستدعي ضرورة الالتفات إليها و حفظها قدر المستطاع لأنها الدليل المادي الذي تعتمد عليه في تاريخ أي بناء أثري إذا ما اختلفت آراء المؤرخين في نسبته على عصر ما "[3]

---

[1] المصدر نفسه ص 262

[2] المصدر نفسه الصفحة نفسها

[3] مبارك بوطارن ، العمائر الدينية في المغرب الأوسط ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع د ط 1 ص201

[3] المصدر نفسه الصفحة نفسها

فقد حازت قرية سيدي ناجي على تراث مادي أهلها لأن تكون منطقة سياحية يقصدها الزوار للتعرف على مآثرها ، فهي تتكئ على العديد من عناصر الجذب السياحي كالمعالم الدينية، والمواقع الأثرية، والتاريخية الهامة المنتشرة على كافة رقعتها ، ومن هذه المعالم الدينية التي وقف عنها الرحالة أبو القاسم سعد الله فوصفها و سجل نشاطاتها حتى تتبقى في الذاكرة نذكر :

1/ الجامع الكبير:

يسمى كذلك سيدي مبارك وهو مسجد أثري قديم يعود تأسيسه إلى القرن الحادي عشر -17م - "و لم تقتصر مهمة هذا الجامع في العبادة، و أداء الصلوات الخمس بل كان مركزا لنشر العلم، حيث تتحلق فيه حلقات الدروس من شيوخ ، قال عنهم الورتلاني أنهم اشتهروا بالنحو، و الفقه، و الحديث لا يحبون تدريس التوحيد والمنطق، فوظيفة الجامع كما يذكر لم تقتصر على العبادة بل تحولت إلى دور العلم تقدم فيه الدروس ، و تجري فيه مناظرات بين علماء قسنطينة وتونس[1]

2 / مسجد السوق:

مسجد اثري بخنقة سيدي ناجي يقصده أهل المنطقة لأداء الصلوات الخمس ، و قد بني حسب التواتر خلال القرن الثاني عشر -18م- [2]

3/ مسجد زاوية الشيخ عبد الحفيظ الخنقي :

يحمل هذا المسجد اسم الشيخ المؤسس للزاوية على الطريقة الرحمانية في القرن الثالث عشر -19م- ،و هذا المسجد له مكانة كبيرة ،" فهو معلم ديني أثري ، تعرض للاندثار إلا أن مكانته دفعت المهتمين به إلى إعادة ترميمه و قد جدد المسجد أخيرا فقط سنة1979م السيد

---

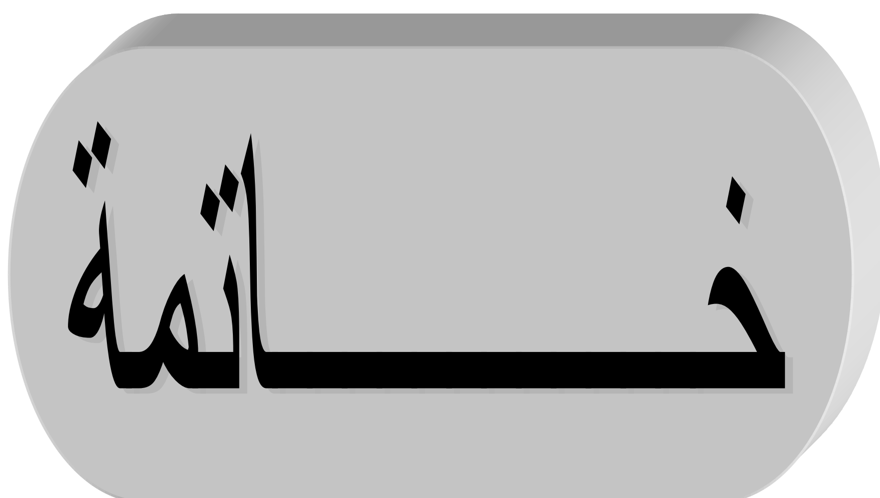
[1] أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب و الرحلة ص 262
[2] المصدر نفسه ص 261

رشيد حفيد الشيخ عبد الحفيظ"[1] ، و بعد أن وقفنا عند بعض المعالم الدينية التي وصفها رحالونا من مساجد و جوامع وزوايا ، سنشير إلى الفرق الذي أورده أبو القاسم سعد الله بين هذه المعالم الثلاثة ، و الرابط بين الجامع و المسجد يقول الرحالة : ″و التداخل ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضا ، فالجوامع، و المساجد، كانت للعبادة و التعليم كما أن الزوايا أحيانا ، ولكن هذه في الغالب كانت رابطا، أو ملجأ، أو مسكنا، للطلبة و الغرباء و مركزا لتلقين الأذكار و استقبال المريدين" ، كما أن حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها ، فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد فهو الذي تؤدى فيه الصلاة الجامعة، أو الجمعة، أو العيدين ، ثم أن الجوامع و المساجد في الغالب غير منسوبة الى مؤسسها ، بينما تنسب غالبا إلى ولي من الأولياء ″[2]

---

[1] المصدر نفسه الصفحة نفسها

[2] أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص245


خـــــاتمة

و في خاتمة هذا البحث يمكننا القول أن أدب الرحلة يشكل جنسا أدبيا يصور فيه الرحالة ما شاهد هو ما جرى من أحداث و ما صادفه من أمور أثناء رحلته ، فكانت كتب الرحلات من أهم و أوثق المصادر التاريخية و الجغرافية و الاجتماعية ، لأن الرحالة يستقي مختلف هذه المعلومات من المشاهدة الحية و التصوير المباشر ،فكان أدب الرحلة فنا يجمع بين المتعة و الفائدة ، و لأن الرحالة ينقل من خلال رحلته كل ما سمعه ووقع عليه بصره كان هذا الأدب سجلا حقيقيا لمختلف المعلومات.

فان الرحلات الجزائرية بمختلف اتجاهاتها قد رصدت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها ، و عكست أحوال المجتمع الجزائري و عاداته، وكشفت الانتماء لثقافة الذات و الفهم لثقافة الآخر .

هؤلاء المفكرين وإن كانوا ماتوا جسديا إلا أنهم أحياء، حاضرون بأفكارهم ومؤلفاتهم التي بقيت متداولة بين الدارسين والباحثين، وهي الآن تخطى باهتمام وعناية المحققين والناشرين ورحلة أبو القاسم سعد الله خير دليل على ذلك التقدير.

إن رحلة أبو القاسم سعد الله قد أثبتت أن الجزائر تتربع على تراث غني ومتنوع الضروب، فهو يمثل الهوية الوطنية والعزة والكرامة للشخصية الجزائرية فقد نقلها بصورة حية وحقيقية خاصة أن البعض منها مهدد بالضياع.

-فالرحلات أعطت بذلك صورا واقعية لبعض مظاهر الحياة في مختلف البلدان من عادات وتقاليد، إذ تعتبر هذه الرحلة مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1/ المصادر:

1- ابن منظور لسان العرب ج 11 دار صادر بيروت ط 1994 .3

2- ابن فارس (أحمد) مقاييس اللغة المجلد الثاني دار الجيل بيروت

3- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830) ج 2 دار الغرب الإسلامي ط 3 بيروت 1990.

4- أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب و الرحلة

5- جبور عبد النور المعجم الأدبي دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية 1984 .

6- الفيروز ابادي قاموس المحيط ج 3 دار الأحياء للكتب العربية بيروت 1985

7- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب،مكتبة لبنان ط2،بيروت 1984،1944 .

8- محمد العبدري البلنسي – الرحلة المغربية :بن جدو ، نشر كلية الآداب الجزائرية + مطبعة البعث د، و الجزائر "قسنطينة "

9- محي الدين أبي زكريا يحي بن عبد الرسول،ج 17 -18 مكتبة أبو بكر الصديق للنشر و التوزيع ، ط 1 القاهرة 2006.

10- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، ج1 للنشر الجزائر رغاية 1989 .

2/المراجع:

1- إبراهيم محمد الساسي العوامر ، الضروف في تاريخ الصحراء و سوف ،منشورات شالة ، د،ط الجزائر 2007.

2- إنجيل بطرس الرحلات في الأدب الإنجليزي

3- ابن عمار أحمد مدة فن الكتاب المسمى نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب مطبعة بيروت فونتانة الجزائر 1902

4- بشرى محمد صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي ط 1 الدار البيضاء "بيروت ، المغرب "1944

5- بكير بن سعيد أعوشت ، ميزاب يتكلم تاريخي ، عقائديا ، اجتماعيا ، المطبعة العربية ت ط الجزائر "غرداية "1993

6- حسيني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ط2 بيروت 1983

7- حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات سلسلة عالم المعرفة رقم 138 المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت 1989

8- حسين نصار ، أدب الرحلة ن مكتبة لبنان + الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط1 ، مصر "لونجمان "1991

9- سعيد علوش ، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة المكتبة الجامعية الدار البيضاء 1984 .

10- سعيدي محمد ، الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ، ديوان المطبوعات الجامعية د،ط الجزائر"بن عكنون " 1998

11- سميرة أنساعد ، الرحلة إلى المشرق في الأدب العرب ، دراسة في النشأة و التطور و البنية ، دار الهدى ت ط الجزائر "عين مليلة " 2009

12- سميرة أنساعد الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري منذ القرن الحادي إلى الثالث عشر الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي و الثقافي الجزائر ط1 2011

13- سيد حامد النساج "مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا " مكتبة عربية د ط القاهرة د ت.

14- شعيب حليفي ،الرحلة في الأدب العربي : التجنيس ، آليات الكتابة ...خطاب المتخيل رؤية للنشر و التوزيع ، ط 1 القاهرة 2006

15- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف ط 4 ن القاهرة 1956

16- عواطف محمد يوسف نواب ، الرحلات المغربية و الأندلسية – مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة ، مكتبة فهد الوطنية ، د ط ، الرياض 1996

17- فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ط 2 ، القاهرة 2002

18- فوزي العنتيل ، الفلكلور ما هو ؟دراسة في التراث الشعبي ، دار المعارف، د ط ، مصر 1965

19- مبارك بوطارن ، العمائر الدينية في المغرب الأوسط ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع ، دط 2011

20- محمد الطاهر عدواني ، الزاوية تقود المقاومة و تشارك في حرب التحرير المنعقد بجامعة أسبانيا – وهران – يومي 25-26- ماي 2005 ، منشورات وزارة المجاهدين – الجزائر 2007

21- محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة "دراسة "منشورات اتحاد الكتب العرب ، دط دمشق 2002

22- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية + مكتبة الوفاء للطباعة و التوزيع ط 1 القاهرة 1995

23- نوال عبد الرحمن الشوابكة ،أدب الرحلات الأندلسية و المغربية ، حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، دار المأمون للنشر و التوزيع ط 1 عمان 2008

3/المراجع المترجمة :

- كراتشوفسكي أغناطيوس يوليانوفتيس ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الإسلامي ط2 بيروت 1987

4 المجلات و الجرائد :

المجلات:

- سميرة أنساعد ، صورة المشرق من رحلات الجزائريين في العهد العثماني ، مجلة –

التراث العربي ، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ع 24 ، السنة آذار 2005

- خطاب الرحلة و مكوناته البنيوية مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي جدة – ج9 م 3 سبتمبر 1993

- محمد حاتمي في الخطاب الرحلي

- الجرائد:

- أبو القاسم سعد الله صيف في سوف ، الشعب
- الحلقة الأولى : 30 أكتوبر 1989
- الحلقة الثانية : 31 أكتوبر 1989

2/ الرسائل الجامعية:

1 - إسماعيل الزردومي فن الرحلة في الأدب المغربي القديم أطروحة الدكتوراه و له في الأدب القديم 1426 /2005 م جامعة الحاج الأخضر قسم اللغة العربية و آدابها باتنة .


الفهـــرس

الفهرس